Université 08 Mai 45
Guelma Algérie

جامعة 08 ماي 45
قالمة الجزائر

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي جامعة 8 ماي 1945 قالمة
Ministère de L'enseignement Supérieur Et de la recherche scientifique
Université 8 Mai 1945 Guelma — جامعة 08 ماي 1945 قالمة
Faculté :des lettres et des langues — كليّـــــــــــــة الآداب واللـــــغـــــــــــات

N° : — **الرقم :**

مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماستـــــر
(تخصص : أدب جزائري)

تجليات الهوية في ديوان "الشقاء في خطر" لمالك حداد

مقدّمة من لدن الطالبة:
مريم عطايلية

تاريخ المناقشة: 22 جوان 2016

أمام لجنة المناقشة:

ميلود قيدوم	رئيساً	أستاذ محاضر " أ "	جامعة 08 ماي 1945 قالمة
بشرى الشمالي	مشرفا ومقرّرا	أستاذ مساعد "أ"	جامعة 08 ماي 1945 قالمة
عبد العزيز العباسي	مناقشاً	أستاذ مساعد " أ "	جامعة 08 ماي 1945 قالمة

الموسم الجامعي: 2016

كلمة شكر

أشكر أولا المولى عز وجل الذي أعانوني على إتمام هذا العمل المتواضع ،والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبتوفيقه تبلغ الغايات .

أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذتي المشرفة "بشرى الشمالي "التي تحملت معي عناء البحث ولم تبخل عليا بنصائحها وتوجيهاتها منذ بداية العمل فمهما قدمت من شكر وتقدير فلن أوفيها، لما تحملته معي من مشقة وعناء حتى على حساب أيام راحتها .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بالشكر الخالص للأساتذة الأفاضل:

"يزيد مغمولي" ،" علي طرش" ،" عبد العزيز العباسي" الذين كانوا سندا لي وأعانوني،وإلى كل أعضاء لجنة المناقشة الذين تكرموا بقراءة هذا البحث المتواضع ،وإلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل

.

مقدمـــــــــــــــــــــة

أصبح مفهوم الهوية أو الانتماء في الفكر الجزائري الحديث من أهم المواضيع الجديرة بالدراسة والبحث، كما أنها من أهم المواضيع المتداولة في الوطن العربي ؛فالعرب منذ القديم يعتزون بهويتهم ويسعون للحفاظ عليها .

اختلفت الآراء حول الهوية الجزائرية التي كانت السبب الرئيسي في تفجير ثورة التحرير واسترجاع السيادة الوطنية التي حاول الاستعمار نسفها والقضاء على المقومات الأساسية التي تميز الجزائر عن غيرها من القوميات ،ناهيك عن اللغة المعبرة عن هذه الهوية . .

ويعتبر الشعر من أهم الألوان الأدبية التي عبرت عن تجربة الشاعر خارج وطنه ،فهو يحكي بصدق وبأسلوب فذ عن الاضطراب والقلق الذي يعيشه جراء فقدان أهم مقوم من مقومات هويته ،ومن نها اخترنا أن يحمل بحثنا عنوان : "تجليات الهوية في الشعر الجزائري المكتوب بالفرنسية ، ديوان "الشقاء في خطر لمالك حداد نموذجا" ،لتسليط الضوء على تجربة تشتت الهوية التي عاشها الشاعر من خلال ديوانه .

وتروم هذه الدراسة معالجة إشكاليات عديدة منها :

كيف تناول الشعراء العرب موضوع الهوية قديما وحديثا ؟

وهل اختلفوا في طرح هذا الموضوع باختلاف الأزمنة والأمكنة ؟

هل حالت اللغة الفرنسية دون قدرة الشعر الجزائري المكتب بالفرنسية على تناول موضوع الهوية الجزائرية والدفاع عنها ؟ كيف

تجلى موضوع الهوية في ديوان "الشقاء في خطر" لمالك حداد؟ وموضوع

البحث واضح من خلال عنوانه الذي يحدد لنا مدى تجسد فكرة الهوية في الشعر الجزائري المكتوب بالفرنسية ، إذ جسدها مالك حداد خير تجسيد في ديوانه "الشقاء في خطر" الذي أراد من خلاله الكشف عن حقيقة كامنة لا يمكن محوها أو تجاهلها ، وقام بالرد على كل محاولات فرنسة الجزائر ،وأثبت بقلمه أن الجزائر بمعالمها وأرضها وشعبها عربية .

وقد حفزنا على اختيار مثل هذه القضية ومناقشتها اهتمامنا الخاص بموضوع الهوية الجزائرية التي تمثل كياننا ووجودنا إضافة إلى اهتمامنا الخاص بموضوع الصراع بين الشرق والغرب ورغبتنا في إماطة اللثام عن الثقافة العربية الجزائرية وتوضيح ماهية الهوية الجزائرية التي كانت محل جدل على الساحة الأدبية ، هذا إلى جانب كون الموضوع لم ينل نصيبا كافيا من الدرس خاصة في شقه التطبيقي ، وكذا ديوان "الشقاء في خطر" الذي لم يلق – هو الآخر – حقه من الدراسة .
اقتضت طبيعة الإشكاليات المطروحة تقسيم البحث إلى :مقدمة يتبعها فصل أول معنون ب : "الهوية في الشعر العربي" ،تطرقنا فيه للحديث عن الهوية قديما وحديثا وإشكالية انتماء الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ،أما الفصل الثاني المعنون ب :"الهوية في ديوان "الشقاء في خطر" فهو دراسة تطبيقية في ديوان " الشقاء في خطر" لمالك حداد المكتوب باللغة الفرنسية لكنه عربي في دلالته ومضامينه ورموزه ،وتناولنا في هذا الفصل لمحة عن الديوان والشاعر ثم تجليات الهوية في الديوان وتجلت على مستويات ثلاث : الهوية الجزائري ،الهوية الإسلامية ،الهوية العربية،وذيلنا البحث بخاتمة تطرقنا فيها إلى أهم النتائج .

وقد حاولنا الإجابة عن الإشكاليات السابقة متبعين منهجا تحليليا رأينا أنه الأنسب والأكثر تماشيا مع الموضوع.
واعتمدنا في بحثنا هذا على عدة مراجع أهمها : تاريخ الأدب الجزائري لمحمد طمار ،الأدب الجزائري باللسان الفرنسي :نشأته وتطوره وقضاياه لأحمد منور ،وغيرها.

وكما لا تخلو أي دراسة من عوائق وصعوبات ،صادفنا العديد منها نذكر أهمها : قلة المراجع وضيق الوقت.
وفي الختام نتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذة المشرفة "بشرى الشمالي" التي منحتنا من وقتها وعلمها الكثير و لم تبخل علينا بنصائحها القيمة ،كما نتقدم بالشكر لجميع أعضاء اللجنة المناقشة .

الفصل الأول:

الهوية في الشعر العربي

تمهيد:

يعدّ موضوع الهوية من المواضيع الهامّة التي حازت على عدد كبير من الدراسات الأدبية الغربية والعربية، فظاهرة الهوّية لصيقة بالوجود الإنساني و لذلك نرى انعكاساتها في الأعمال الأدبية ككّل وفي الشعر و بالأخص لما يحمله من خصوصية كونه أكثر تعبيرا عن هواجس الإنسان وقدرة على استعاب التجربة الإنسانية من النثر.

وبما أنّ الشعر كان و لايزال وثيقة تاريخية، ثقافية، انتروبولوجية لحياة العرب قديما و حديثا فقد كان أكثر صلة بظاهرة الهوّية و أفصح في التعبير عنها و أدق في تصويرها، باعتبار الأديب ابن بيئته، فهو يحسّ بالواقع الّذي يعيشه و يتفاعل معه لذا عبّر عن واقعه الراهن إمّا بالرفض أو القبول وهو بذلك يثبّت هويّته و انتماءه لذلك المجتمع.

ودارس الشعر العربي عامّة قديمه و حديثه يصادف فيضا من مشاعر الإنتماء و التعبير عن الهويّة و هو ما يوضّحه لنا الاطّلاع السريع على الانتاج الشعري القديم و الحديث، وسنحاول في هذا الفصل تتبّع موضوع الهويّة في الشعر العربي القديم و الحديث وذلك من خلال ايراد وتحليل بعض النصوص الشعرية بداية من العصر الجاهلي وصولا إلى العصر الحديث، حيث أخذت هذه الظاهرة أبعادا أخرى مغايرة لما ساد قبلها.

1- قديما:

أ- المقدّمة الطلليّة: إنّ المتأمل لظاهرة الطّلل في الشعر العربي القديم يدرك أنّها ليست مجرّد لبنة من لبنات البناء الفنّي للقصيدة الجاهلية فقط، بل هي المنفذ الّذي يقدّم من خلاله الشاعر رؤيته الخاصّة للعالم، التي لا تخلو من دلالات نفسية و شعورية كشعوره بالانتماء واحساسه العميق بهويّته.

و الوقوف على الأطلال وبكاؤها رمز لحبّ الوطن و الأرض و الانتماء إليها، حيث عبّر من خلال بكائه على الطّلل عن حنينه و حزنه جرّاء فقدان أرضه.

يبدو أنّ الابتعاد عن الديّار أمر محتوم لدى الشاعر العربيّ بسبب الظروف البيئية القاهرة التي تفرض عليه الانتقال من مكان إلى آخر بحثا عن الماء و الكلأ، و تتبع مساقط الغيث، فالعربي لا ينقطع رحيله سعيا وراء متطلبات الحياة (الماء و الكلأ)، لهذا صوّرت مطالع القصائد العربية الجاهلية بقايا الوطن المهجور الّذي عاش فيه الشاعر و كوّن علاقات محبّة، و عبّر عن حنينه للديّار و الأهل و بخاصّة إلى المرأة الحبيبة التي فارقها دون رجعة، "و مع تداخل هذه الأحاسيس لم يجد الشاعر بدّا من التعبير عن حزنه و اكتئابه في المقدّمة الطلليّة، وهو يرى عوالم الذبول و الفناء والسكون في المكان الّذي هاجر منه أهله، وهو يعيش تداعي الذكريات وغياب المرأة في هذا العالم القاسي"[1] ، فولّد الابتعاد عن الأهل والأحبة الديّار شعور بالوحدة.

ومن بين الجاهليين الّذين وقفوا على الطّلل و بكوها نجد امرئ القيس يقول في مطلع معلقته:

"قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

[1]- شهناز بسمة بن زرقة، المكان في القصيدة الجاهلية، دراسة لموضوع الصحراء، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان،2001/2000،ص89.

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجنها من جنوب و شمأل"[2]

رحل الشاعر عن وطنه إلى مكان آخر بحثا عن الماء و الكلأ، و هنا يبكي الديار التي فارقها والحبيبة التي ابتعد عنها، وقد قام بوصف ما آلت إليه الديّار بعد غياب الأحبّة.

كما عبّر لبيد بن ربيعة عن الرحيل القاسي بقوله:

"عريب و كان بها الجميع فأبكروا منهاو غودر نؤيها، وثمامها

شافتك ظعن الحيّ حين تحمّلوا فتكنّسوا قطنا تمرّ خيامها"[1] .

ليبد هنا يتحدّث عن مرارة الرحيل، فهو لم يتحمّل رؤية القبيلة خاوية من أهلها كما تفحص أبيات لعنترة عن أزمته العميقة التي سببها الرحيل:

"إن كنت أزمعت الفراق فإنّما زمّت ركّابهم بليل مظلم

ما راعني لا حمولة أهلها وسط الديار تسفّ حبّ الخمخم

فيها اثنان وأربعون حلوبة سود كغافية الغراب الأسحم"[2]

[2]- امرؤ القيس، الديوان، صحّحه مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط5، 2004 ،ص110.

[1]- لبيد بن ربيعة، الديوان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص104.

[2]-عنترة بن شدّاد، الديوان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004، ص12.

وقد وظّف هنا ألفاظا توحي بمرارة الابتعاد و فقدان الأحبة، و كانت لفظة الغراب الأسحم حاملة لدلالات عميقة تدلّ على الغربة والاحساس بعدم الانتماء وفقدان الهوية.

كما بكى عنترة الدّيار بقوله:

"هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعدّ توهـــــــــــــــــــــــــم"[3]

لقد طمست كلّ الآثار والملامح التي تدلّ على وطن الشاعر لدرجة أنّه أصبح من الصعب التعرّف عليها، إنّ بكاء الشاعر على الأطلال هو بكاء على هويته التي فقدها بمغادرة الوطن والدّيار.

ب- **الصعلكة:**

تعدّ ظاهرة الصعلكة في الشعر العربي ثمرة من ثمار انعدام الشعور بالانتماء وعدم التوافق مع الجماعة، وكانت نتيجة لظروف قاهرة فرضت نفسها على مجموعة من الشعراء دون غيرهم، حيث كانوا مسلوبي الحقوق مهمّشين منبوذين من لدن قبائلهم الذين تنكّروا لهم لسبب أو لآخر،ولعلّ انتماءهم العرقي لعنصر السود واختلاط نسبهم هي من أبرز أسباب هذا التهميش، خاصة أنّ قبائلهم تعتمد نمط حياة تعسّفي يفرض قوانين جائرة، وقد أشار إلى ذلك يوسف خليف حين قال:"الأساس الّذي تقوم عليه نصوص من هذا الدستور هو العصبية"[1] ،ذلك أنّ القبيلة ترفض الاختلاط وتعتبره مخلا بتوازنها ونقاء العرق العربي فيها، وبما أنّ القبيلة مؤسسة على مبدأ القوة الذي يجعل من تحقيق المساواة والتكافؤ بين الأفراد مستحيلا ومع هذا الواقع الظّالم لجأ مجموعة من الأفراد المحتقرين الّذين لقّبوا بالصعاليك إلى اعلان رفضهم وتمرّدهم على قيّم القبيلة، التي ترفض الاعتراف بنسبهم بالرغم أنّ معظمهم يتّصف بالقوة والشجاعة وقد

[3]- المرجع نفسه، ص11.

[1]- يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1978، ص89.

رفضتهم قبائلهم لا لشيء إلاّ لفقرهم الّذي جعل منهم أدنى طبقات القبيلة وأحقرها، ونشأ لدى هؤلاء احساس بالضعة والدونية، وتمرّدهم هو تمرّد قصد البعض من خلال إثبات هوّيته وانتمائه وكان عند البعض الآخر تنصّلا ورفضا للهويّة والانتماء للقبيلة.

ومن الطبيعي أن يختلف موقف الصعاليك من هذه الحركة التي وهبوا لها حياتهم،ونستطيع أن نميّز نمطين من الصعاليك: شخصيّة متمرّدة " رأت هذه الحركة فرصة سانحة لإظهار بطولاتها الفردية، التي تستغلّها في ارضاء نفسها من نزعة شريرة فهي لا ترضى إلاّ برؤوس الأغنياء المترفين ونهب مالهم بل لا تبالي في سبيل ذلك بأن توجه حركاتها المتمرّدة ضدّ أيّة جماعة....ونرى ىشخصية أخرى رأت أن يكون تمرّدها وسيلة غايتها انسانية معيّنة، هي رفع الظلم عن المظلومين، وحماية المستضعفين"[2]

إضافة إلى الفقر الّذي دفع بالكثير من الأفراد إلى التّصعلك نجد عاملا آخر وهو عامل الانتماء أو النقاء السلالي، وصحّة النسب، الّذي كان سبب في اضطهاد الكثير حيث عانى أبناء الإماء الحبشيات الويلات، فقد نبذهم آباءهم و لم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السّليْك بن السلكة وتأبّط شرا والشّنفرى، وكانوا يتشاركون وأمّهاتهم في سوادهم فسمّوهم وأضرابهم بإسم أغربة العرب"[1] .

توحي هذه التّسمية بمدى الظّلم والتهميش المفروض من القبيلة، وهذا ولّد لهم الشعور بفقدان الهويّة و الانتماء و دفع بهم للنقمة و التمرّد على قواعدها، و هناك من تخلّى عن القبيلة و انتماءه لها كالشّنفرى الّذي يحمل دم الحبشة من أمّة، التي "كانت سوداء"[2] فقد خرج إلى البراري و اتّخذ من الحيوان رفيقا و صاحبا و هو يصرّح به في لاميته حيث يقول:

---

[2]- المرجع نفسه، ص321.

[1] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط11، دت، ص375

[2]- الشنفرى ، الديوان، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،ط2، 1996،ص10.

"أقيموا بني أمّي صدور مطيّكم فإني إلى قوم سواكم لأميـــــــــــــــــــــــــــــــــــل"[3]

يرفض الشّنفرى انتماءه للقبيلة و يتنصّل من هويّته بل إنّه يرفض المجتمع البشري ككّل و يرفض هويّته الإنسانية كلّها و ذلك بهجرته للعيش مع الوحوش و الحيوانات فيقول في لاميته:

لعمرك ما بالأرض من ضيق امرئ سرى راغبا أو راهبا و هو يعقــــــل

و لي دونكم أهلون سيد عملّس و أرقط زهلول و عرفاء جيئــــــــــــــــــــــل

هم الأهل لا مستودع السرّ ذائع لديهم و لا الجاني بماجرّ يخــــــــــــــذل"[4]

يفضّل الشّنفرى بعض الحيوانات (الذئاب و الضّباع) على أهله و عشيرته، التي ينتمي إليها و يتنصّل من هويّته كإنسان بل ينظر للبشر على أنّهم أشرس من الوحوش ذاتها و أكثر افتراسا و فتكا من الحيوان.

و هي قصيدة تضعنا "أمام ذات أرهقها المجتمع الإنساني بظلمه، و أذاه فإذا هي تخلع انتماءها إلى هذا المجتمع و تؤسس انتماءا جديدا لها إلى المجتمع الحيواني"[1] .

تنكّر الشّنفرى لهوّيته و انتماءه للقبيلة التي ولد فيها، و أنهى علاقته بالمجتمع الإنساني و كذلك ألغى هوّيته الإنسانية و أعلن الحرب على القبيلة.

---

[3]- المرجع نفسه، ص58.

[4]- المرجع نفسه، ص59.

[1]- عبد الحفيظ بوريدم، النص الشعري العربي المعاصر، من حضور الوهم و بلاغة الشهود، دار البشائر للنشر و الاتصال، الجزائر، ط1، 2002، ص18.

نفس المعاناة كانت مع تأبّط شرّا الّذي ألف الحيوان و ألفه،حتى أنّه استغنى عن صيدها يقول:

"يبيت بمغنى الوحش حتى ألفـــتـــــــــــــــــه و يصبح لا يحمي لها الدهر مرتعـــــــا

رأيت فتى لا صيد وحش يهمّـــــــــــــــه فلو صافحت انسانا لصافحنه معا"[2]

يستأنس تأبط شرّا بالحيوان الّذي وجد فيه ما لم يجده في الإنسان، فهو يلغي هويّته الإنسانية وانتماءه لبني البشر الذين ظلموه، وهذه الأبيات تخفي مرارة وألما كبيرين كغيره من الصعاليك الّذين يعانون مرارة البعد عن القبيلة وانتماءهم إليها، وإن كانوا تخلّوا عنها بمحض ارادتهم.

وبهذه اللمحة الخاطفة عن الصعاليك اكتشفنا أن هذه المجموعة وليدة لظروف اجتماعية قاهرة أساسها عصبية القبيلة وقوانينها الجائرة المفروضة على رعاياها فهم فئة تمرّدت على الوضع القائم وان اختلفت أسبابهم في ذلك منهم من خلعتهم قبائلهم لكثرة اجرامهم ومنهم من تنكّر لهم آبائهم و لم يلحقوهم بهم كالسّليك بن السّلكة، الشّنفرى، تأبّط شرّا لا لشيء إلاّ لمشاركتهم أمّهاتهم في صفة السواد، فعانوا مرارة البعد و الفراق عن الأهل والأحبة وكانوا يطوقون لإثبات هويّتهم وانتمائهم لقبائلهم وإن كان بعضهم تخلّى عن انتسابه للقبيلة وهويّته.

ج- التعصّب للقبيلة:

اعتبر الجاهلي القبيلة خطا أحمر، ذلك أنّها المعبّر الأساسي عن هوّيته فهي تمثّل نسبه وانتماءه ومصدر قوّته، و يشترك أبناء القبيلة في الأصل الواحد و العادات و التقاليد التي تحافظ عليها وتتمسّك بها تمسّكا شديدا و قد"كان الرباط الّذي يوثّق الصلة بين أفراد القبيلة هو

[2]- تأبّط شرا، الديوان، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2003،ص (34-35).

العصبية،وهي عصبية قبليّة، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام"[1] ، فكلّ قبيلة لها قائدها وحماتها الّذين يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة أهلها حيث يضحّون بأنفسهم في سبيلها لأنّهاحياتهم وكيانهم.

وقد عبّرت النصوص العربية للعصر الجاهلي عن التعصّب للقبيلة وكان من أبرز الشعراء الّذين مثّلوا الحياة الجاهليّة أصدق تمثيل"عمرو بن كلثوم" الذي افتخر بالحرب والتعصّب للقبيلة باعتباره"شاعر مطبوع اتسم شعره بالفخر و الحماسة"[2] فجاءت معلّقته بطابع حماسي اعتمد فيها على الاعتزاز بالنفس و المبالغة، وباطّلاعنا على المعلّقة استطعنا أن نستخرج بعض الأبيات التي افتخر فيها عمرو بقومه وعزّتهم وكرمهم الذي كان سمة من السّمات التي تميّزهم ونذكر بعض منها:

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقرّ الذّل فينـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــا"[3]

افتخر الشاعر بآباء قومه و عزهم ووصف لنا رفض قومه وكرههم للذّل والإهانة وهذا حال العرب قديما فهم يرفضون الانكسار.

كما حملت بعض الأبيات في معلّقته دلالة الرّفعة والشّرف وجاء هذا في قوله:

"ورثنا مجد علقمة بن سيـــــــــــــــــــــــف أباح لنا حصون المجد دينا

ومنا قبله الساعى كليـــــــــــــــــــــــب فأي المجد إلاّ قد ولينـــــــــــــــــــــــــــــــــــــا"[1]

[1]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص57.

[2]- عمرو بن كلثوم، معلّقته، اصدارات دار الكتب الوطنيّة، أبو ظبي، الإمارات، ط،1، 2012،ص13.

[3]- المرجع نفسه،ص69.

[1]- المرجع السابق، ص (49-51)، بتصرّف.

يذكرنا الشاعر بهويّته من خلال تمجيده لآباءه و أجداده، لذلك ذكر لنا بعض أسماء أجداده كعلقمة بن سيف وكليب، ويبيّن لنا كيف انتقل المجد من الآباء إلى الأبناء، كما يقول في ذات السيّاق أيضا:

"وعتابا و كلثوم جميعـــ
ا بهم نلنا تراث الأكرميــــــــــــــــــــــــــــنا"[2]

حاول عمرو بن كلثوم من خلال ذكر عتاب وكلثوم أن يبيّن لنا أنّ كرم أباءه وأجداده وعطائهم لا ينقطع وهذا الكرم انتقل إلى الأبناء، كما يقول:

"ورثناهن عن أباء صدق ونوريثها إذا متنا
بنينـــا"[3] .

يفتخر عمرو بن كلثوم بإنتسابه للقبيلة، فهو يعتزّ بهويّته التي ورثناها عن آباءه وأجداده الذّين خلّدهم التاريخ.

وبهذا كان التعصّب للقبيلة، تعصّبا للهويّة العربية التي هي مصدر فخر واعتزاز لدى الشاعر العربي خاصة والمجتمع عامّة.

د– السود وصورهم في المجتمع و الشعر:

خلقت العوامل البيئية والظروف الاقتصادية في القديم عند العرب مجتمعا متفاوتا ،مقسّما إلى مجتمع السادة والأغنياء ومجتمع الفقراء، هذه الطبقة التي خلقت التمرّد داخل المجتمع نظرا للقيود والصعوبات التي تواجهها، فالقبيلة العربية كانت تنقسم إلى ثلاث طبقات اجتماعية: "**طبقة الصرحاء:** وتمثّل الطبقة الأولى في القبيلة وتتكون من أبناء القبيلة الخلصاء (الأصليين) وصراحة البنوة بمفهومها القبلي، هي نقاء الدّم الّذي يجري في عروق أبناء القبيلة"[4] .

---

[2]– عمرو بن كلثوم، الديوان، مرجع سابق، ص49.

[3]– المرجع نفسه،ص59.

[4]– عبد القادر عبد الحميد زيدان، التمرّد و الغربة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء، الاسكندرية، مصر،د ط،د ت، ص53.

"**طبقة العبيد:** وتأتي بعد طبقة الصرحاء و تتكون من فئتين: الأولى تتكون من أسرى الحروب والثانية تتكون من العبيد المجلوبين، وكانت تجارة العبيد من التجارات الرّابحة، فهم يمثّلون سلعة مهمّة من السلع المتداولة الآتية من الحبشة وافريقيا.

طبقة الموالي:وهي الطبقة الثالثة التي تتكون منها القبيلة العربية وتحتلّ هذه الطبقة مترلة أعلى نسبيا من مترلة العبيد، وأدنى من مترلة الصرحاء"[1] .

وعلى الرغم من التّفاوت في المجتمع العربي إلاّ أنّ التلاقي يحدث أحيانا بين طبقاته بأن يتزوّج أحد السّادة احدى اماءه.

"و إذا كانت قضيّة أبناء الإماء و حياتهم في المجتمع القبلي تمثّل محورا من محاور الشقاق بين الفرد من هؤلاء و بين القبيلة فقد كان هذا الشقاق يأخذ طابع الحدّة إذا كان الفرد من طبقة العبيد السود خاصة وأنّهم عاشوا في مجتمعات تقول بالعصبيات وتؤمن بما يسمّى بالأرومة الشعريّة".[2]

عاش السود حياة العبودية وسط قبائلهم التي تخلت عنهم و لم تعترف بهم ممّا ولّد لديهم عقدة نفسية وعقّد حياتهم فقد كانت القبيلة "تطلق عليهم اسم الأغربة السود هؤلاء الذين تسرّب إليهم السواد من أمّهاتهم الإماء الذين في الوقت نفسه لم يعترف بهم آبائهم العرب أو اعترفوا بهم عن ضيق"[3] .

كانوا مجهولي الهويّة والنسب بسبب سواد جلدهم الذي ورثوه من أمهاتهم الحبشيات ،فهؤلاء" دمائهم ليست عربية خالصة، وإنّما خالطتها دماء أجنبية سوداء لا تصل درجة نقائها إلى درجة نقاء الدم العربي"[4] .

المعروف عن القبيلة أنّها ترفض الاختلاط إذا فهي ترفض ذوي البشرة السوداء ولا تنسبهم إليها بالرغم من أنّ دماء العرب تجري في عروقهم وكان هؤلاء بلا جذور في مواجهة المجتمع

[1]- المرجع السابق، ص54.

[2]- عبدة بدوي، الشعراء السود و خصائصهم في الشعر العربي، دار قباء، القاهرة، مصر، دط،دت، ص8.

[3]- المرجع نفسه، ص23.

[4]- يوسف خليف، الشعراء الصعليك، مرجع سابق، ص58.

غير منتمين إليه" فإذا انتموا فإنّ غالب انتمائهم يكون للأنظمة المشاقة و المكايدة للأنظمة القائمة... ومعنى هذا أنّهم كانوا على حافّة الأنظمة أو متذبذبين بين القبول و الرفض، أو منسحبين تماما من كلّ ما يدور حولهم لأنّ ما يدور حولهم أقوى منهم، ولأنّ من يقترب منهم قد يصعق أو يقضم بالسيف"[1] .

عانى هؤلاء السود كثيرا من سوادهم خصوصا أنهم يعيشون وسط أفراد يختلفون عنهم تمام الاختلاف، وهذا ما وسع الهوّة بينهم، وجعلهم يتخبّطون بين عالمين متناقضين لا رابط بينهما، فهم حاولوا الربط بين شيئين منفصلين و هما"هويّة الأسود وهويّة العربي، إنّها هويّة مزدوجةو تعيش حالة من التمزّق...فالواحد منهم يعني أنّه أسود، وفي الوقت ذاته يسعى لأن يكون عربيا"[2] .

رغم معاناتهم وآلامهم إلاّ أنهم يرغبون في اثبات هويّتهم العربية ويسعون لتحقيق ذلك.

تجلّت قضيّة السود في الأدب العربي القديم على مستويين أولا: الشّعراء السود الذين رفضوا من قبائلهم و لم يجدوا غير الشعر ملاذا لاثبات هويّتهم و انتمائهم وايصال أمانيهم في الانتساب إلى القبيلة، أمّا المستوى الثاني تمثّل في نشوء طائفة من الشعراء والأدباء الّذين اتّخذوا من أشعارهم وسيلة لهجاء وتقبيح ذوي البشرة السوداء:

- **الشعراء السود:**

من بين الشعراء الذين عاشوا حياة لا يحسدون عليها و تجرعوا مرارة العبودية والرفض" **عنترة بن شداد**" الّذي صنّف في خانة الأعزبة لأنّه ابن سوداء عكس أبيه العرب الأصيل " **أمّه زبيبة**"[3] حبشيّة اللّون، " وقد كان أفلح، أي مشقوق الشقة السفلى فكان يقال له عنترة الفلحاء وسواد لونه جعله في عداد أغربة العرب في الجاهليّة"[4] .

[1]- عبدة بدوي، الشعراء السود، مرجع سابق، ص9.

[2]- نادر كاظم، تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيّل العربي الوسيط، المؤسّسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان ط11، 2004،ص503.

[3]- عبدة بدوي، الشعراء السود، مرجع سابق، ص25.

[4]- عنترة بن شداد، الديوان، دار صادر، ط1، 1955 ،ص2.

العرب كانوا يستعبدون أبناء الإماء ويهينونهم ولا يعترفون بهم، وهذا كان حال عنترة.

"عنترة من أشهر الشعراء السود الذي عرفته الثقافة العربية ولعلّه كان أيضا أكثر الشعراء السودان رغبة في الاندماج في الجماعة العربية".[1]

كان عنترة يرغب في اثبات هويّته العربية والعيش وسط أهله، وقد حاول بكلّ الطرق من أجل تحقيق ذلك، وبالتالي فإنّ كلّ ماهو متاح أمامه هو أن يعمل جاهدا من "أجل ستر سواده بحمل الآخرين على النظر إليه بوصفه شاعرا وفارسا لم يضرّه لون جلده بل قد يكون سواده فخرا له لا منقصة وعيب يقول في ذلك:

ما ساءني لوني و اسم زبيبة إذا قصرت
عن همّتي أعدائي

ويقول أيضا:

لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسب يوم النّزال إذا ما فاتني النسب".[2]

يفتخر هنا عنترة بنسبه وهويّته التي يعيرونه بها، ويحارب بفروسيته لحمايتها والحفاظ عليها.

" فالحاجز اللّوني كان وراء تحديد هذا النوع الجديد من الفروسية العربية، ففروسيته لم تكن هوجاء، ولا مغامرة إلى أبعد الحدود"[3]

يتخذ عنترة من الفروسية أداة لتغطية سواده.

لم يكن عنترة "ليتورّع عن استخدام سلاحيه المشهورية (الفروسية و الشاعرية) في الدّفاع عن نفسه، فبروسيته كان يحارب من أجل حماية نسبه من قبل أمّه فإذا كان هو شريف النسب من قبل الأب، فإنّه يحمي نصفه الآخر أي نسبه من السودان بالسّيف.

[1]- نادر كاظم، تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيّل العربي الوسيط،، مرجع سابق، ص504.

[2]- المرجع نفسه، ص 505.

[3]- عبدة بدوي، الشعراء السود، مرجع سابق، ص39.

انّي امرؤ من خير عبسى منصبا شطري و احمي سائري بالمنصل".[4]

افتخر عنترة بهويّته ونسبه و دافع عنها بالسّيف.

وقد كان فارسا متخلّقا يحتكم بعقله وحسن الخلق "فاجتماع السواد مع الخلق السّيء يمثّل منتهى النقص والضعة، فهو عيب على عيب، ومنقصة على منقصة و للتخفيف من هذا العيب لابدّ لهذا الأسود من أن يكون ذا خلق حسن حيث لا يشفع للأسود إلاّ بياض خلقه وجمال أفعاله وخصاله وهذا ما أدركه عنترة حيث يقول مستعيضا عن سواد جلده بشعره ولسانه:

ليس السواد بناقصي مادام لي هذا اللسان على فؤاد ثابـــت

من كان ترفعه منابت أصـــــــــــــــــــــله فبيوت أشعاري جعلت منـــــــــــــــــــــــــــــــــابتي

كم بين أسود ناطق ببيانـــــــــــــــــــــــــه ماضي الجنان و بين أبيض صامــــــــــــــــــــت

إنّي ليحسدني الرفيع بنـــــــــــــــــــاؤه من فضل ذاك و ليس بي من شامت".[1]

يعتزّ عنترة بسواده وهويّته ولا يعتبر لونه عيبا مادام لسانه ينطق ويجود بما لا تجود به قرائح البيض الّذين أصبحوا يحسدونه على ما ينظّمه.

حاول عنترة من خلال ما نظمه الدفاع عن هويّته وانتمائه رفضا منه للتهميش والقمع الّذي مورس على ذوي البشرة السوداء وقد اتخذ من فروسيّته وشعره وسيلة لستر سواده وتخطّي عقدة النقص.

---

[4]- نادر كاظم، تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيّل العربي الوسيط،، مرجع سابق، ص506.

[1]- المرجع السابق، ص514.

- **هجاء السود:** وكما عانى عنترة بسبب سواد جلده عاني غيره كذلك وكان محلّ هجاء لاذع حيث كان الشاعر العربي يهجو السود ويعيب عليهم قبحهم فسواد جلدهم كان عائقا كبيرا بالنسبة لهم حيث جلب لهم المذلّة و السخريّة ومن أشهر الّذين تعرّضوا للهجاء نذكر "أبو المسك كافور ابن عبدالله اللّيثي من الأحباش، وقيل أنّه من الشعراء الّذين يحسنون المسامرة فقد كان يحفظ الكثير من الملح و النوادر وكان عارفا باللّغة معرفة صحيحة"[2] ، هذا الأخير اجتمعت فيه صفات جعلت من هجاءه وذمّه مضامين تجري على لسان المتنبّي فسواده وعبوديّته جعلت المتنبّي يقبّحه ويعيره حيث حوّله إلى رمز من رموز الخيانة ووصفه بكلّ الصفات التي تختزلها الذاكرة عن السود والعبيد حتّى و ان كانت بعيدة عن شخصيّته لكن المتنبّي ألصقها به.

جاء هجاء كافور ذمّ صريح احتشدت فيه كلّ مقابح السود ومعيّبهم فقد هجاه في هذا المقطع مبيّنا:"معايّبه الخلقيّة والخلقيّة، فيقول:

أمينا و إخلافا وغدرا و خسّة   وجبنا أشخصا لحت لي أم مخازيا".[1]

نلاحظ هنا ذكر جملة من الخصال المذمومة في بيت واحد ولشخص واحد فقد هجاه المتنبّي بأقبح الصفات(الغدر، الخسّة، الجبن...).

وكافور لم يخرج عن كونه عبدا أسود حقير فهو مهما بلغ يرجع إلى أصله كما قال المتنبّي:

من وجد المذهب عن قـــــــــــــــــدره   لم يجد المذهب عن قنســـــــــــــــــــــــــــــــــــه"[2]

بالرغم ممّا وصل إليه كافور من جاه و ملك ،إلاّ أنّه عائد إلى أصله وهويّته لامحالة لأنّ هويّته محفورة فيه ولا مفرّ منها والمتنبّي هجا كافور بسواده وعبوديّته" فهو ينكر على كافور أخلاقه في لؤمه ورذالته وانعدام أصله و نسبه و عبوديّته حين كانت النخّاس تلعب في رأسه

[2]- عبدة بدوي، الشعراء السود، مرجع سابق، ص238.

[1]- نادر كاظم، تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيّل العربي الوسيط،، مرجع سابق، ص478.

[2]- المرجع نفسه،ص 479.

كما تنكّر خلقته من حيث هو أسود قبيح الصّورة، وضخم المشفر، ومشقوقة، وغليظ القدمين ومشقوقهما،ونتن الرائحة،وهو بهذا أقرب إلى البهائم لخلقته وأخلاقه. "[3]

ذكر المتنبّي جملة من الصفات القبيحة و نسبها لكافور، كما أنّه أعابه لعدم معرفته لأصله و هويّته لكنّ هجاءه كان مركّزا على سواده و لم يكتف المتنبي بهجاءه للسود بل كشف" تعاليه على الآخر الأسود، ونفيّه واقصاءه:

العبد ليس لحرّ صالح بـــــــــــــــــــــــــــأخ
لو أنّه في ثياب الحرّ مولـــــــــــــــــــود"[1] .

يرى المتنبّي أنّ العبد يبقى عبد و لو ولد في ثياب الحرّ، فعبوديّته لن تفارقه طوال حياته، هذا النفي لا يكتمل إلاّ باستحضار صور الأسود التي ألصقت بكافور" فهو عبد رذيل و كاذب وغدّار ومنافق وأحمق ولئيم وبخيل وخترير وكركدن وغراب وبهيمة ومنتن الرّوح والجسد...وقد ركّز المتنبي على المقابح الخلقية...،فيقول:

و أسود مشفرة نصفـــه يقال له أنت بدر الدّجـــــــــــــــــــــــــــى

و كذا قوله:

و أنّ ذا الأسود المثقوب مشفرة تطيعه ذي الغضاريط الرعاديد"[2]

هذه الأبيات عبارة عن سخريّة وتهكّم تجاه كافور وهويّته السوداء التي جلبت له لعنة الذّم والتقبيح والتجريح.

[3]- المرجع نفسه، ن ص.

[1]- المرجع السابق، ص480.

[2]- المرجع، نفسه، ص ن.

ه- العصر العباسي:

عرفت الحاضرة العربية العبّاسيّة تمازجا كبيرا بين الثقافات الفارسيّة اليونانيّة، الهنديّة، التركيّة، اليهوديّة، هذا التمازج فرض على العباسيين نوعا معيّنا من الحياة على كافّة الأصعدة: السياسيّة و الاجتماعيّة و العقليّة هذه الأخيرة التحمت بها عدّة نشاطات كالتّرجمة، الحركة العلميّة، نقل الشعوب العربية المستعربة.

وقد نشأ جيل من الشعراء العرب من أصول غير عربية، و بالتالي كان شعرهم ساحة لصراع الهويّات، و كان"جمهور العلماء والشعراء لهذا العصر من أبناء العامّة، ويكفي أن نعرف أنّ أعلام الشعر حينئذ من الطبقة الدنيا في الشعب"[1] .

ومن بين شعراء هذا العصر بشّار بن برد، أبو نواس، أبو العتاهية و غيرهم، و أبو نواس كان متزندقا يتغنّى بالخمرة" و إذا مضيْنا معه إلى العصر العباسي، عصر انتصار الفرس على العرب وجدنا شعوره بالعصبيّة القبليّة يتحوّل إلى شعور جديد بالعصبيّة الجنسيّة، فإذا هو

[1]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، (العصر العباسي) الأول، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط16، د ت،ص 107.

يفاخر العرب بماضي قومه التليد، و إذا هو يتحوّل شعوبيّا مارقا يتغنّى بأمجاد قومه الحضاريّة كافرا بالعرب والعروبة، وتصوّر هذه النزعة عنده أدقّ تصوير قصيدته:

هل من رسول مخبـــر
عني جميع العرب". [2]

يفتخر بشّار بن برد بهويّته القبليّة وجنسيّته الفارسية ويتغنّى بأمجاد قومه منكرا العرب والعروبة، فقد"زعم أنّ الروم أخواله، هتافا، هتافا مقذعابالعرب ومعيشتهم البدويّة الخشنة"[3] .

لقد هجا العرب ووصفهم بالخشونة والبدويّة وهو بهذا يتنكّر لهويّته العربية وقد "اشتهر بشّار بالتفنّن في الغزل، و يتضح عنه تمثّله لكلّ ما نظم في هذا الفن قديما من التشبيب والنسيب

وبكاء الديار" [1] يبكي بشار رسم هذه الديّار التي لم يبق منها سوى بقايا شاهدة هي امتداد لهويّته وانتماءه وهو بذلك اقترب من القدماء الّذين بكوا المنازل ووقفوا على الدمن والأطلال.

كما نجد أبا نواس الّذي اشتركت في تكوين طبيعته عناصر كثيرة،" فقد كان فارسيّا حاد الميزاج وثقف كلّ الثقافات التي عاصرها من عربية واسلامية و هنديّة و فارسية و يونانيّة وماجوسيّة و يهوديّة ونصرانيّة و غرق في حضارة عصره الماديّ" [2] ، تعدّد ثقافات أبا نواس دلالة على تعدّد هويّته وانتمائه.

2– حديثا:

[2]– المرجع نفسه، ص215.
[3]– المرجع نفسه، ص ن.

[1] –المرجع نفسه، ص ن.
[2]– المرجع السابق،ص226.

اختلف مشكل الهويّة حديثا عن مفهومه في القديم لارتباطه حديثا بالاستعمار الّذي أكسب الهويّة أبعادا جديدة، وقد عمل على تشويه هويّة المجتمعات العربية و مقوّماتها من طمس لمعالم الوطنيّة وتجريد الشعب من حقوقه في اللّغة و الدّين و الجنسيّة، كما حاول التفريق بين الأفراد بمنع التجمعات و قمع الحريات الفردية و الجماعية،و في ظل الاضطهاد الممارس على الشعوب العربية عملت الفئات المثقفة من العرب على الاطلاع على الثقافة الغربية وتأثرت بها وتبنتها وبالتالي تغيرت طريقة طرح هذه الاشكالية في الشعر العربي الحديث.

عملت الشعوب العربية على التصدّي و الصمود في وجه الاستعمار الغاشم من خلال رفضها لكلّ سياسة استعمارية تمسّ الهويّة والسيادة الوطنيّة"إذ كان الاستعمار عاملا رئيسيا في استثارة مفهوم الهويّة وأشكلته في عالم اتّسمت نظرته لنفسه وما حوله بقدر كبير من الوضوح والثّبات....فقد كان الغرب المستعمر يخلق صدمات ثقافيّة حيثما حلّ من خلال قيمته التي يفرضها على البيئات الاجتماعية والثقافيّة التي يحلّ فيها، والتي تضطر تلك البيئات بدورها للمقاومة قدر ما تستطيع"[3] ، كان هدف الاستعمار الأساسي القضاء على الهويّة العربية وإحلال هويّته هو لكي تكون السيطرة على تلك المجتمعات سهلة، وقد تصدّى للاستعمار مجموعة كبيرة من الشعراء العرب الّذين تبنّوا قضيّة وطنهم، و عبّروا من خلالها عن هويّتهم وانتمائهم، من بينهم محمود درويش، وهو من الشعراء الملتزمين بالقضيّة الفلسطينية، حيث عبّر بلغة صادقة وصوّر لنا مدى معاناة الشعب الفلسطيني و أرض فلسطين المغتصبة،"واندمج اندماج

عضويّا بالنّاس والتراب والقضيّة ووعى نفسه وهو في المعركة و اعتبر نفسه شاعرا ثوريّا يخاطب الجماهير و يكتب من أجل الجماهير كما قال عن نفسه لاجئ فلسطينيّ في فلسطين"[1]

ذاب درويش وانصهر في فلسطين فتبنّى القضيّة و أصبح يحارب بالقلم و يتوجّه للجمهور ليعي مدى حساسية الوضع التي آلت إليه فلسطين .

[3]- مازية حاج علّي، الهويّة و الاستعمار، ندوة الهويّة في الأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 12-03-2004، ص3.

[1]- محمّد أحمد سعد، موسوعة روائع الشعر العربي للقصائد الذهبيّة، دار صفاء ، عمان، الأردن،ط1، 2003 ،ص266.

"اتسعت القضية الفلسطينيّة و الوعي بها و ازدادت اليقظة بمصير هذا الوعي و خاصّة عند شاعرنا المناضل محمود درويش داخل وطنه و خارجه، ليظلّ ما بينه و بين وطنه بحر فينكفئ على نفسه مواجها بين خارجه الحامل مأسويّة الواقع،وداخله الحامل لهويّته"[2] ازدادت وطنيّة درويش ومدى وعيّه بها، حيث أحسّ بمدى بشاعة الواقع الّذي يسود وطنه الّذي يمثّل هويّته و انتمائه ومع تعرّضه للنفي من قبل الجيش الصهيوني إلى بيروت إلاّ أنّه لم يتوقف عن التعبير عن انتمائه لفلسطين "هذا الانتماء الّذي يعبّر عن العلاقة القائمة بين الوطن والشاعر بكونه جزء لا يتجزأ منه، فالتعبير عن الانتماء للوطن في هذه المرحلة لا يمتلك جمالياته إلاّ من منظور الواقع المأساوي".[3]

دفع الواقع المزري – الّذي تعيشه فلسطين – بالشعراء للتعبير عن هويّتهم و انتمائهم للأرض المغتصبة ،فقد عبّر محمود درويش عن مأساته في المنفى واشتياقه لوطنه الحبيب في قصيدة قال فيها:

ليس عندي ما أقول بعد

من أين أبتدي؟...و أين أنتهي؟

و دورة الزّمان دون حدّ

و كلّ ما في غربتي

زوادة ،فيها رغيق يابس، و وجد

و دفتر يحمل عنيّ بعض ما حملت

بصقت في صفحاته ماذاق بي من حق

من أين أبتدي

[2]- محمّد فكري الجزّار، الخطاب الشعري عند محمود درويش،ايتراك للنشر والطباعة، ط2، 2001،ص 120.

[3]- المرجع نفسه، ص (217-220).

و كلّ ما قيل و ما يقال بعد غد"[1]

بيّن درويش لنا مرارة الابتعاد عن الوطن فهو يحنّ إلى هويّته و انتمائه لفلسطين ويرغب في الرجوع إليه والعيش وسط أهله وأحبائه.

كما نجده في قصيدته جواز سفر يطرح لنا قصيدة تمتاز بالدفء و عشق التراب ويصوّر لنا الواقع المقيّد لأحلامه، فقد رسم لنا فيها صراع بين الذّات والهويّة حيث جسّد لنا الطريق يحمل في شقّه الأول نكران لهويّة الشاعر و لوجوده أمّا الثاني فقد عبّر عن عدم قدرة البعض على إثبات هويّة الشاعر وتأكيد أصله وكيانه يقول فيها:

عار من الاسم، عار من الانتماء؟

في تربة ربّيتها باليدين...

"أيوب "صاح اليوم ملء السماء

لا، تجعلوني عبرة مرّتين!

يا سادتي!يا سادتي الأنبياء...

لا تسألوا الأشجار عن اسمها...

لا تسألوا الوديان عن أمّها...

من جبهتي ينشّق سيف الضّياء...

و من يدي ينبع ماء النّهر...

كلّ قلوب النّاس... جنسيّة

فلتسقطوا عنّي جواز السّفر!"[1]

[1]- محمود درويش، الديوان، مج 1، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص89.

[1]- المرجع نفسه، ص (359- 360).

يشكو الشاعر من الغربة داخل وطنه ،فهو مسلوب الهويّة ،فاقد لحقوقه الوطنيّة و هنا الشّاعر يبني قصيدته على ثنائية الأنا والأنتم، الفلسطيني المسلوب الأرض والهويّة والأنتم الغاصب المعتدي، فهو يرى في قلوب النّاس جنسيّته وانتماءه. إضافة إلى قصيدة أخرى بعنوان بطاقة هويّة حيث يقول:

"سجّل

أنا عربيّ

و رقم بطاقتي خمسون ألف

و أطفالي ثمانية

و تاسعهم سيأتي بعد صيف

فهل تغضب

سجّل أنا عربيّ

و أعمل مع رفاق الكدح في محجر

و أطفالي ثمانية

أسل لهم رغيف خبز

الأثواب و الدفتر

من الصخر

...

سجّل أنا عربيّ

سلبت كروم أجدادي

و أرضا كنت أفلّحها

أنا و جميع أولادي

و لم تترك لنا و لكلّ أحفادي

سوى هذى الصّخور

...

جذوري قبل ميلاد الزّمان رست"[1]

يتوجه درويش في هذه القصيدة بالحديث إلى المستعمر الغاصب الذي طغى في وطنه فساد، وقتل وجرح و أباد أهله، فقد أبلغه رسالته التي قال فيها: بأنّه مهما حاول الاستعمار لن يستطيع محو هويّته العربية التي لن تزول بسهولة، لذلك أمره بالتسجيل لأنّ هذه الأرض لن تلد ولن تنجب إلاّ أبناءا لا يهابون الموت بل يعتبرونه شرف، فالفلسطنيون أقوياء يحبون وطنهم و يعتزّون بهويّتهم التي يريدون ترسيخها وكتابتها بدمائهم الطاهرة.

وكما عانت فلسطين فكذلك الجزائر لم تكن بمنأى عن الدوّل العربية وبالتالي لابدّ لنا أن نتحدّث عن تناول الشعر فيها بفرعيه المكتوب بالعربية والمكتوب بالفرنسيّة لقضيّة الهويّة، فقد كان الواقع المزري الّذي عاشته الجزائر في فترة الاستعمار مصدر إلهام لكثير من المبدعين الجزائريين الّذين كانوا يشعرون بالضيّاع والكآبة في عالم يعمّه القهر والحرمان وكان الحنين للوطن عاملا أساسيّا في خلق ما يسمّى بالقوميّة وبالتالي الهويّة في الشعر .

وقد عبّر جلّ الشعراء في قصائدهم عن إحساسهم بعدم الانتماء للوطن الّذي يعيشون فيه غرباء فقراء يقول الشاعر عبد الله شريط:

"ظمئت إليك يا وطني لأنّي غريب في جبالك و الروابـــــــــــــــــــي

غريب في بحارك و الفيـــــــــــــــــــافي غريب في سهولك و الهضاب

غريب في المقابر و النوادي غريب النطق في دنيا اضطباربي

[1]- محمود درويش، الأعمال الأولى، ريّاض الريّس، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص80

غريب في المعابد و الملاهي غريب في ميولي و
انتســـــــــــــــــــــــــــــــــابي"[1]

يصرّح الشاعر بإحساسه بعدم الانتماء والانتساب لكلّ شبر من وطنه الذي أصبح يشتاق إليه وهو فيه.

كمّا عبّر عبد الحميد بن باديس أيضا عن هويّته العربية وقاوم فكرة الاندماج والانصهار عن الهويّة الفرنسيّة، فقد أبى إلا أن "تكون الجزائر مسلّمة عربيّة فقال:

شعب الجزائر مسلـــــــــــــــــــــــــــــــم
و إلى العروبة ينتســـــــــــــــــــــــــــــب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد
كـــــــــــــــــــــــــذب

أو رام ادماجا لـــــــــــــــــــــــــــــــــه
رام المحال من
الطلـــب"[2]

يتغنّى بن باديس بالهويّة الجزائرية التي ينتسب لها وينفي كلّ قول يوحي بتقبّل الجزائر الهزيمة والادماج مع المستعمر الغاصب، فهو شعب متشبّث بأصله ومقوّمات هويّته التي يعدّها خطّا أحمر ولا يسمح لأي كان التعدّي عليها.

كذلك فعل مفدي زكريا الّذي وقف في وجه فرنسا بشعره الّذي كان يكشف فيه عن ألاعيبها ويعبّر عن حبّه للجزائر فيقول:

يا لائمي في هواها إنّها قبس من الجزائر و الأمثال تنطبق
بنت الجزائر أهوى فيك طلعتها فكلّ ما فيك أوصافها خلــــــــــــــــــق

[1]- محمّد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الساحة المركزيّة، الجزائر،دط،2006 ،ص409.
[2]- المرجع نفسه، ص402.

أحبّها مثل حبّ الله أعبـــــــــــــــــــدها آمنت بالله لا كفر و لا نـــــــــــــــــرق

قلب العروبة لم يعصف بنخوتها عسف و لا نال من ايمانها رهق"[1]

يعبّر الشاعر عن حبّه للجزائر، أرض الحريّة و الكرامة، فهيّ عربية وستظلّ كذلك بعزيمة شعبها وإصراره على الحياة بعزّة

ويشير إلى اشتراك الجزائريين في مقوّمات الهويّة: لغة الضّاد و العروبة والتاريخ المشترك والدّين الواحد وترابطها ،الّذي يعيش عليها أبناؤها ويفرض عليهم وحدة الهدف والمصير يقول:

"نحن في هذه الجزائر اخـــــــــــــــــــــوان جراحاتنا الثخينة حمـــــــــــــــــــــوا

لحمة الضّاد و العروبة و التاريخ و الدين أي ربّك كبـــــــــــــــــــــرى

و هواها ماؤها و سماهـــــــــــــــــــــا و ثراها الزكي شبرا فشبـــــــــــــــــــــرا."[2]

يحصي لنا الشاعر مقوّمات هويّة الشعب الجزائري ،التي يشترك فيها كلّ فرد من أفراده و يسعى من أجل الحفاظ عليها و على وحدة التراب والوطن، ذلك أنّ ضياعها يعني ضياع الهويّة الجزائرية واندثارها لذا، وجب العمل للحفاظ عليها، والوقوف في وجه المستعمر الّذي يسعى من أجل طمسها والقضاء عليها.

[1]- حسن فتح الباب، مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، دار الرّائد للكتاب، الجزائر، ط1، 2010 ، ص38.

[2]- مفدي زكريا، اللّهب المقدّس، الشركة الوطنيّة، الجزائر، دط، 1983، ص283.

3- إشكالية انتماء الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية:

تعتبر الكتابة بلغة غير اللّغة الأم أو بالأحرى لغة المستعمر من أهم القضايا المطروحة على الساحة الأدبية العالميّة فقد عرفت في بلدان آسيا و افريقيا، أوروبا كما أنّها ليست حكرا على الاستعمار الفرنسي وحده فقد وجدت آداب آخرى في بلدان مستعمرة كتبت بغير الفرنسيّة أي الانجليزية، اسبانيّة...)، ومن هنا نستشّف أنّ اشكاليّة هويّة الأدب مطروحة أيضا بالنسبة للأدب الإفريقي والآسوي المكتوب بلغات أوروبية لكن تختلف عن بعضها البعض في طبيعة الاستعمار ومدى بقاء اللّغة الأم في ذلك المجتمع، فالمستعمر يعمل بالدرجة الأولى على ضرب أهم مقوم من مقوّمات مستعمراته" اللّغة" وبمجرّد احلال لغته و اندثار اللّغة الأم تصبح المستعمرة جزء من المحتل وخير مثال على ذلك ممارسات فرنسا القمعيّة في الجزائر و التي حاولت من خلالها فرض سياسات تعسّفيّة كسياسة الادماج لمحو العربية و طمسها وإحلال الفرنسيّة، وتهدف بذلك إلى القضاء على أهم عنصر من مقوّمات الهويّة الجزائريّة، وإذا ما تطرّقنا إلى إشكالية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسيّة نجد أنّه محلّ جدل بين النقاد حيث انقسموا إلى فريقين: فريق يرى أنّه أدب فرنسي لأنّه كتب بلّغة فرنسيّة ،وآخر يرى أنّه أدب جزائري لأنّ روحه وجوهره محلي مستوحى من واقع جزائري محض، ومن الّذين تحدّثوا عن نسب الأدب الفرنسي نجد "**محمّد طمار**"الّذي يرى أنّه جزائري لكنّه عاجز بسبب اللّغة حيث يقول:" إنّ الأدب الفرنسي اللّغة أدب وطني صادق صوّر كفاح الانسان المستعمر لكنّه عجز عن الأداء الكامل لمشاعر العربية الانسانيّة، وذلك للانفصال بين اللّغة المعبّرة والواقع، فإنّ اللغة لها علاقة كبيرة بالعقلية وبالجانب الوجداني والانفعالي من الانسان، فالأديب لا يفكّر تفكيرا

يتّصل بالمشكلات الواقعيّة و الاجتماعيّة إلاّ أن تكون في إطار قومي، ولا يؤدي أفكاره تأديّة خالصة إلاّ باللّغة القوميّة."[1]

يبقى أدبنا المكتوب بالفرنسيّة عربيّا جزائريّا "رغم استعارته للحرف الأجنبي للتعبير عن أحاسيس ومشاعر وطنيّة، عربية اسلاميّة، فهو أدب افريقي عربي محض في مضمونه وصوّره وتصوّراته واهتماماته"[1] تعذّر على بعض الأدباء الجزائريين تعلّم لغتهم الأم العربية لظروف قاهرة فرضت عليهم لغة أخرى غير لغتهم، إلاّ أنّهم حاولوا أن يدافعوا عن انتمائهم الوطني وتجذّرهم في الثقافة العربية وعبّروا عن مدى تعاستهم وألمهم بسبب بعدهم عن الأهل و الوطن، فقد تبنّوا الكتابة بالفرنسيّة ليوصلوا من خلالها أصواتهم التي تحمل اعترافهم لعروبة هذا الأدب، وانتمائه الوطني على الرغم من الكتابة بلغة المستعمر ولا أدلّ على ذلك من قول مالك حدّاد:

"الأدباء الجزائريين وإن عبّروا بالفرنسيّة فهم يترجمون أفكار جزائريّة."[2]

يصرّح مالك حدّاد أنّ أفكارهم جزائرية، وستظل وإن كتبت بلغة غير العربية فإنّها تعبّر عن مضامين جزائرية، فهذا عبد الملك مرتاض يقول:"بالرغم أنّ الأدب المكتوب بالفرنسيّة، منشور في دور النشر الفرنسيّة، لكنّ اللّغة لم تصنع أبدا هويّة قوميّة مختلفة للكاتب الّذي ولد عربيّا لكنّ ظروف نشأته وتعليمه جعلته يتقن اللّغة الفرنسيّة التي اعتبرت بالنسبة له لغة كتابة أولى، لكنّها لم تطمس أبدا هويّته العربية"[3] عبّر الأدباء الجزائريون عن انتمائهم بلغة الغير لكنّ هذا لا يعني أنّهم تنكّروا لهوّياتهم بل بالعكس كان هذا وليد ظروف خارجة عن إرادتهم، فالأديب يعبّر عن واقعه باللغة المتاحة لديه، المهم" أن يؤدّي الكاتب شهادته و أن يكتب باللّغة التي سمحت له الظروف بأن يتعلّمها و أن يعبّر عن الواقع الحيّ في بلاده و يلتقط الصوّر الناطقة في

[1]- محمّد طمّار، تاريخ الأدب الجزائري، مرجع سابق، ص496.

[1]- الصحراوي فقيهي، رهان التجديد في الرواية المغاربية المكتوبة بالفرنسيّة، مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء، المغرب،ط1، 2001 ،ص4.

[2]- نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرّفض و التحرير، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص206.

[3]- محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسيّة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ، د ط، 1996 ، ص7

أصول بيته ومجتمعه ، وأن تبقى شهادة الكاتب وثيقة ثمينة يخلّفها لمن بعده حتّى يستمرّ الأديب في تأدية واجبه المقدّس،وأنه ليس من العار أن يكتب باللغة الفرنسيّة أو غيرها"[4] .

إن الإحساس العميق بالهويّة دفع بالكتّاب الجزائريين إلى التعبير عن الواقع المرير الّذي تمرّ به البلاد ومشاركة شعبه أحزانه و أفراحه و إن كانت بلغة غير لغته الرسميّة التي لم تسنح له الفرصة لاتقانها والتعبير بها لكن هذا لم يمنعه من أداء واجبه تجاه وطنه وشعبه.

صرّح الأدباء الناطقون بالفرنسيّة بعروبتهم فهذا مراد بربون يقول:"إنّ اللّغة الفرنسيّة ليست ملكا خاصّا للفرنسيين، وليس سبيلها سبيل الملكيّة الخاصّة بل أنّ أيّة لغة إنّما تكون ملكا لمن يسيطر عليها ويطوّعها للخلق الأدبي ويعبّر بها عن حقيقة قومية."[1]

اللّغة هي مجرّد وسيلة في نظر هؤلاء ولا تعبّر عن انتسابهم وانتمائهم لفرنسا.

لكن رغم المضامين العربية الجزائرية لأعمال هؤلاء ومناداتها بالارتباط بالوطن والعودة إليه ،إلاّ أنّ أعمالهم كانت محلّ رفض من قبل البعض ،حيث رأوا أنه أدب دخيل عن الأدب الجزائري وأنكروا هويّته العربيّة بحكم اللّغة التي كتب بها ووضعوهم"في صفّ واحد مع الكتاب الفرنسيين الّذين ولدوا هم أيضا على أرض الجزائر و عاشوا فيها، ويستند أصحابه في ذلك إلى وجهة نظر مدرسة الأدب المقارن الفرنسية نفسها التي تلحق الأدب مهما كانت جنسية كاتبه بالأمّة التي تتكلّم اللّغة التي كتب بها ذلك الأدب و تعدّه من أدبها القومي"[2] وبهذا نسبوا الأدب المكتوب بالفرنسيّة إلى غير الجزائر ونفوا انتماءه لها حيث اعتبروا اللّغة التي كتب بها دخيلة ولا تمتّ بأيّة صلة للغة الجزائر العربية وبالتالي هو أدب فرنسي، فالمتحدّث بغير لغته لا ينتمي إليها وإن كانت مضامين كتاباته تعبّر عن انتمائه واحساسه

[4]- محمّد طمّار، تاريخ الأدب الجزائري، مرجع سابق، ص494.

[1]- المرجع السابق، ص494.

[2]- أحمد منوّر، الأدب الجزائري باللّسان الفرنسي، نشأته و تطوّره و قضاياه، دار التنوير، الجزائر، ط 1، 2013، ص (139-140).

بتجذّره في تلك الأمّة"، فاللّغة هي التي تربط الكاتب بأمّته ذلك أنّها روح الأمّة وحياتها، إنّها بمثابة محور القوميّة العربية وعمودها الفقري... والتاريخ هو بمثابة شعور الأمّة بذاكرتها"[3] .

إذن اللّغة هي أساس انتساب الشّخص و انتماءه لتلك الأمّة التي يعيش فيها.

وأمام هذه الآراء نجد أنّ رأيا وقف موقف وسط و تحدّث عمّا يسميه الروح الجزائرية التي كتب بها ويلخّصه قول ابراهيم الكيلاني:"فهذا الأدب وإن كتب بلغة فرنسيّة فهو يعبّر من وراء الحجاب اللّغوي عن أعمق الأسس الروحية والاجتماعيّة التي يقوم عليها ماضي الشّعب الجزائري وحاضره"[1] .

أي إنّ اللغة ماهي إلاّ وسيلة ليوصل من خلالها الأديب آلام وأفراح شعبه وأمّته التّي ينتمي إليها وقد اقترب هذا الرأي من رأي مبارك الميلي الّذي يتحدّث عن الروح الجزائرية عند بعض الكتاب الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسيّة:"عن هذه الروح أنّها مستمدّة من تأثير البيئة التقليديّة ،والأمّ الجزائرية (...) وتلك الرّوح هي التي جعلتهم ينجحون في التخلّص من التأثير السلبي للثقافة الفرنسيّة ويعبرون عن رفضهم للاحتلال حتّى باللغة الأجنبية"[2] .

بالرغم من البعد عن البيئة وعن جلّ المقوّمات الوطنيّة إلاّ أنّهم طوّعوا اللّغة الفرنسيّة وجعلوها خادمة لأفكارهم وتوجّهاتهم وبهذا عبّروا عن جزائريتهم وانتمائهم للأمّة العربية الجزائرية الاسلامية.

وخلاصة القول أنّ الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسيّة كان ولا يزال محلّ جدل كبير حول هويّته بالرغم من تناوله لمضامين جزائرية محضة صوّرت الواقع الجزائري إبان الاحتلال، وقد

[3]- رياض زكي قاسم، الهويّة و قضاياها في الواعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2013،ص15.

[1]- أحمد منور، الأدب الجزائري باللّسان الفرنسي، مرجع سابق، ص141.

[2]- المرجع نفسه، ص ن.

عبّروا كذلك عن رفضهم القاطع للاستعمار وممارساته في أرض الوطن، لكن هذا لم يشفع لهم بأن يكون أدبهم أدبا جزائريا خالصا.

الفصل الثاني

تجليات الهوية في ديوان "الشقاء في خطر" لمالك حداد

1 – لمحة عن حياة الشاعر:

مالك حداد (1927 – 1978) :شاعر و كاتب و وروائي جزائري ولد بمدينة قسنطينة وتعلم في مدارسها الفرنسية التي فرضها الاستعمار، التحق بسلك التعليم ليشتغل معلما ثم سافر إلى فرنسا لمزاولة تعليمه العالي بها بعد نيل الإجازة في الحقوق، تنقل بين عدة بلدان منها القاهرة – لوزان – باريس – تونس – موسكو – ونيودلهي – وغيرها

بعد الاستقلال عاد إلى أرض الوطن و التحق بمهنة الإعلام وتم تعيينه مشرفا على الصفحة الثقافية بجريدة النصر في قسنطينة لينتقل بعدها إلى الجزائر العاصمة ويعين كمستشار ثم مدير للآداب والفنون بوزارة الإعلام و الثقافة، أنشا إثر ذلك مجلة " التقدم" ثم مجلة " أمال" سنة 69 ثم تولى سنة 1974 ولأول مرة الأمانة العامة لاتحاد الكتاب بالجزائريين حتى سنة 1978 [2]

مالك حداد من الكتاب الذين يركزون في أعمالهم على تصوير غربتهم وواقعهم كمثقفين متأرجحين بين ثقافتين، فقد نذر أعماله الشعرية الروائية لنصرة قضية شعبه ومقاومة المستعمر الفرنسي الذي تفنّن في مسح الهوية الجزائرية، فكان همه الوحيد خدمة الثورة الجزائرية و الإسهام في تحقيق أهدافها. شهد مالك حداد مأساة 8 ماي 1945 التي حفرت في كيانه و أثرت فيه ،حيث يقول لقد ولدت في صباح 8 ماي 1945 [3]، أثرت فيه تلك المشاهد أثرت فأخذ يكتب للصحافة وينشر ليعبر عن بشاعة الاستعمار وظلمه.

---

1 – موقع الكتروني اعلام جزائرية مالك حداد منتديات فيض القلم . -www.a9lam.com/community/threades/malk

2 – زهرة ديك ،من روائع الأدب الجزائري كمقتطفات من نصوص ابرز الأدباء ج ،دار الهدى للطباعة ،عين مليلة الجزائر ،د/ط ،ص09

3 – نقلا عن علجية مرحوم، القضية الجزائرية في الرواية الناطقة بالفرنسية ،دراسة مقارنة 1935-1962 ،جامعة دمشق،1987،ص335.

كان لوعيه النضالي الأثر الكبير في كتاباته فجاءت مفعمة بالتنديد ورفض الاستعمار الفرنسي ضد الشعب الجزائري توفي في 2 جوان 1978 [1]

للكاتب مؤلفات عديدة نذكر منها :

ديوانان من الشعر:

- الشقاء في خطر 1956.
- استمع أناديك 1961 .

الروايات:

- الانطباع الأخير 1985.
- سأهبك غزالة 1959.
- التلميذ و الدرس 1960.
- رصيف الأزهار لا يجيب

وقد ترجمت أغلب هذه الأعمال إلى العربية .

- إضافة إلى دراسة بعنوان الاصفار تدور في الفراغ (1961)

---

1 –زهرة ديك ،مرجع سابق ص 10

2 – زهرة ديك ،المرجع نفسه ص 10

وقد كان مالك حداد من الأوائل الذين طرحوا إشكالية الهوّية الأدبية فقد كان بنظرته الاستشرافية سباقا لطرح مشكلة هوّية الأدب الذي كتبه الجزائريون باللّغة الفرنسية في الفترة الاستعمارية، وكان رأيه واضحا لا لبس فيه إنه يبقى جزائريا بحكم جزائرية من كتبوه وكذلك بحكم الروح التي كتب بها و التي عكست في الغالب الأعم بشكل تلقائي القيم الروحية والأخلاقية الأصلية للشعب الجزائري ،و لكنه في الوقت نفسه لم يعده أدبا قوميا أصيلا كما هو الحال بالنسبة للأدب المكتوب باللغة العربية، ونظر إليه على طرفي انتقالي يمثل مرحلة عابرة في تاريخ الجزائر [1].

فهو يرى أنه بالرغم من مضمونه العربي إلا أنه ليس أدبا جزائريا أصيلا، ذلك أنه لا يملك مقروئية الأدب الجزائري المكتوب بالعربية ،و ليس أدبا قوميا فالكتابة بالفرنسية ما هي إلا ظاهرة أدبية مؤقتة وليدة ظروف تاريخية في مرحلة معينة في الجزائر.

وكما كان سباقا لطرح مشكلة الهوية للأدب المكتوب بالفرنسية فقد كان أيضا سباقا إلى الإقلاع عن الكتابة باللغة الفرنسية و آثر الصمت و الانتحاء جانبا وقد أطلق على هذا الأدب اسم الأدب الفرنسي ذو التعبير الجزائري [2]، فهذه التسمية توحي بأن اللغة هي إشكالية وهاجس حداد الأكبر.

---

1 – احمد منور ،الادب الجزائري باللسان الفرنسي ص 128

2 – المرجع نفسه ،ص 128.

كان من بين الأدباء الملتزمين بقضايا وطنهم ،إذ تبنى القضية الجزائرية وعبر عن انتماءه ورفضه لكل الذين يقولون بأن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية فرنسي ،حيث يقول " إننا كتاب جزائريون منفيون في اللغة الفرنسية ".[1]

فإحساسه بالغربة في لغته جعله يتخذ قراره التاريخي المصيري ،بالنسبة لمبدع بقامته وشهرته عندما أعلن اعتزال الكتابة والتوقف نهائيا عن استعمال الحرف الفرنسي ،مادام لا يستطيع الكتابة باللغة العربية لغته ولغة شعبه .[2]

لقد جعله إحساسه الدفين بأن اللغة الفرنسية دخيلة على الهوّية العربية يعتزل الكتابة نهائيا ذلك أنه لا يستطيع – حسبه – أن يعبر عما يختلج في نفسه مع شعبه وبلغته العربية وأبى إلا أن يكون نتاجه ملتزما كغيره من الشّعراء ذوي التّعبير العربي، فيتحدّث عن فلسطين كأنه أحد أبنائها ،كيف لا ووحدة الدّم والمصير يربطان بين البلدين حيث يقول :

ولكني هنا في داري

في داري فلسطين

في الإهانة في داري

الغراب نفسه

الذي أهان سمائي البارحة في قسنطينة

---

1 – احمد منور ،الأدب الجزائري باللسان الفرنسي ،مرجع سابق ص 128.

2 – زهرة ديك ، من روائع الأدب الجزائري ،مرجع سابق ،ص 11.

وسخر من حينا

ولكنني هناك في داري في فلسطين

ولماذا يا ترى هو في حارة فيجيب

في داري لأنني عربي

عربي حتى الموت

عربي حتى في العيون [1]

يفصح في هذه الأبيات عن عروبته ويؤكد عليها ،ويحس بمأساة فلسطين لأنه تجرع نفس الكأس، مرارة الغربة عن الوطن.

نستشف من خلال هذه اللمحة الخاطفة عن حياة مالك حداد أنه لم يحس يوما أنه فرنسي الانتماء، بل كان دائما يصرح بعروبته و انتماءه للجزائر، وهذا ما عبر عنه من خلال أعماله الشعرية و النثرية ،و يكفيه فخرا أنه لقب بشهيد العربية لأنه مات وهو يتطلع لإتقان العربية والتحدث بها مع أهل بلده .

1 – محمد طمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق ،ص 504.

2-لمحة عن الديوان:

إن المتصفح لكتابات مالك حداد الشعرية يجد جانبا معقدا فيها ، يتجلى لنا على مستوى اللّغة الشعرية المثقّلة بالمعاني ،إذا يجد القارئ نفسه وسط زخم كبير من الدّلالات التي تصلنا من خلال كلماته المنتقاة بعناية ،وهذا ما وجدناه في ديوانه "الشقاء في خطر" الذي حاول فيه نقل رسالة مشفرة نواتها الأساسية الهوّية وقد ضمّن هذه الرسالة رفضه القاطع للآخر (المستعمر) الذي يحتقره وينقم عليه ،وجعل مفردات الديوان تحقق الرمزية الحقيقية للوطن والهوّية التي كانت سببا في ظهور العديد من العواطف والأحاسيس في قصائد ديوانه الستة التي بناها على فكرة واحدة ، هي الوطن وكانت عبارة عن تكتلات تتعلق بمشاعر الشوق و الرغبة في العودة إلى الوطن و الأصل ،فقد قام بنقل دقيق لكل ماكان يدور في الحرب الجزائرية ضد المستعمر الفرنسي الغاشم ،ونجده يؤسس لنوع من التناظر بين الحضور الجزائري الفرنسي، غير أن الكيان الجزائري هو الطاغي ونلاحظ ذلك من خلال استعماله لمصطلحات دالة على الثقافة الجزائرية ومعالجته للفكرة من خلال عاطفة الوفاء للثورة الشوق لكل التفاصيل المتعلقة بالوطن والهوّية والمشاعر، يصور شوقه القوي للجزائر في كل ديوانه ،إنه يذكر تفاصيلها ويصور مجافاته للآخر ورفضه له.

تحليل العناوين:

يعد العنوان عتبة نصية ذات زخم دلالي يمكننا من الانفتاح على العمل الأدبي، إنها الإشارة الأولى التي يرسلها المبدع للمتلقي الذي يحلله ويحدد علاقته بالمضمون أو المتن ،محاولا فك رموزه والولوج إلى مكامن النص ودلالته وبنيته ،وبالتالي فإن عملية اختياره لا تخلو من قصديه الكاتب ،وهذا ما

تجلى لنا عند "مالك حداد" في ديوانه " الشقاء في خطر"،هذا العنوان ملئ بالإيحاءات والدلالات المضمرة فقد قرب لنا رؤية الشاعر التي يريد الإفصاح عنها في قصائد الديوان التي أفرغ فيها كل حمولته ليترك للقارئ القراءة والتأويل ؛ فالشقاء هو الآخر الذي أدخل ذات الشاعر في جو متوتر يصعب تحمله، هو وصف للحالة التي آلت إليها الجزائر روحيا ،سياسيا ،دينيا، وتصف لنا كلمة الشقاء عمق المأساة وحجم الضرر الذي خلفه المستعمر في نفوس الجزائريين.

أما الجزء الثاني من العنوان: "في خطر" فهو جملة تبين لنا ما يقوم به الشاعر للوصول إلى هدفه المنشود ألا وهو الوطن.

وبهذا فإن عبارة "الشقاء في خطر" جزمت بزواله وخروجه من حالة الأمن إلى اللأمن وهنا تكمن شاعرية الكاتب ،فأولى العتبات توحي بانفعال شعوري عنيف لكنه مضمر ،فهو لم يصرح بالمقصود من كلمة الشقاء ومنه بقيت مفتوحة تحتمل تأويلات كثيرة.

عنون مالك حداد مالك حداد جميع قصائد ديوانه باستثناء القصيدة الأولى وتناول فيها –إلى جانب موضوع الهوّية الذي لم تخل منه كل قصائد الديوان – موضوع الكتابة الأدبية والوطن ،جاءت مفردات هذه القصيدة كلها حاملة لمعاني الحرية والسلام و الانطلاق نحو الوطن المفقود ،مستعملا ألفاظا تملؤها الآمال وأخرى تملؤها الخيبات ، أما القصيدة الثانية فقد عنونها ب :المسيرة الكبرى و لم يخل هو الآخر من الشحنات العاطفية التي تسيطر على ذات المشاعر ،حيث نجده ينتقل من حالة الجمود والثبات التي عهدناها في أولى قصائده ،إلى حالة الحركة و الثورة، إنها المسيرة (اتّخاذ موقف – رفض الواقع – التّمرد – كسر الحواجز) للحفاظ على الهوّية و دحض كل

الدعوات إلى فرنسة الجزائر .

أما القصيدة الثالثة فعنوانها: "في يوم هو الثامن من مايو" ،نقل لنا فيها الشاعر تجربته وذكرياته الأليمة من مجازر 8 ماي ،تلك الأحداث المؤلمة التي صورت لنا عنف المستعمر الذي عمل على طمس هوّيته و اقتلاعه من جذوره و تشويه تاريخ الجزائر، فأي شخص في العالم عندما يعشق موضوعا معينا يجد نفسه مرغما على ذكر كل ما له صلة بذلك الموضوع وهذا ما كان عند مالك حداد (حبه وحنينه لهوّيته) فإذا به يدور في حلقة مفرغة و غير محدودة قوامها زمن مضى و لم ينمح،وذاكرة "مالك حداد" مشبعة بتواريخ وطنية جعلت من التذكر تدور حول محور واحد إنه الوطن والهوية .

جسد لنا الشاعر من خلال قصيدته الرابعة المعنونة ب" سكوت" دلالات مثقلة بالأحزان والآلام مفتوحة على كثير من القراءات ، فكلمة سكوت توحي بالهدوء وقد يكون هذا الهدوء استراحة محارب ليسترجع قواه ثم يواصل حربا أعنف ضد المستعمر، وقد يكون السكوت استسلاما للأمر الواقع والرضوخ له .

عنون الشاعر قصيدته الخامسة ب "صور" وهي قصيدة يلخص فيها الشاعر أهم المحطات التي يمكن للذاكرة الإبقاء عليها بعيدا عن مستوى النسيان فالشاعر في حالة تذكر مستمر لصور كثيرة عن هوّيته ووطنه وقد صوّر لنا قيمة الأشياء عن طريق الصور التي تعبر عن رفضه للآخر ووجوده على أرض وطنه، إنه يحقق رمزية إنسانية بعشقه لهوّيته ورفضه للآخر .

"كتبت دوما لاستحق أمي" هكذا عنون قصيدته السادسة وفي هذا العنوان ظهور واضح لذات الشاعر الثائرة المليئة بالعواطف فهي تحمل معاني الشوق للوطن الذي اتّخذ من أجله منحى جديدا للمقاومة وهو المقاومة بالفكر، والتي لا تقل خطورة وفاعلية من المقاومة بالسلاح ،ماكتب "مالك حداد" بالفرنسية إلا ليحقق انتمائه لشعبه ويواسيه في محنته وليكون كفئا بهوّيته الجزائرية . أما قصيدته الأخيرة فاختار لها عنوان "مهمة مكتملة"، وصل في هذا العنوان الانفعال إلى أقصاه وبه تحقق هدفه (السلام استقلال الوطن) فقد تحقق المراد و نالت الجزائر استقلالها وعادت الأرض إلى أصحابها وأبنائها.

3-ملامح الهوية في الديوان :

تتغير الهوية بتغيير الوسط، وقد يكون تواجد كيان آخر في الوسط الذي يعيش فيه الفرد مؤثرا في الهوّية الأصل وهذا ما يخلق أزمة تعدد الهويات داخل المجتمع الواحد، لذا نجد المجتمعات التي تعرضت للاستعمار تحارب من أجل الحفاظ على هوّيتها و انتمائها الذي يحاول المستعمر طمسه و القضاء عليه وإحلال هوّيته وثقافته مكانه، وهذا كان حال الجزائر التي عانت ويلات الاستعمار وظلمه حيث عمل جاهدا على محو مقومات الشعب الجزائري بكل الطرق التي أتيحت له وعبرت أعمال الأدباء الجزائريين الذين كتبوا بالفرنسية عما لاقته الجزائر في ظل الاستعمار محاولين بذلك إثبات هوّيتهم العربية الإسلامية الجزائرية ومن بينهم "مالك حداد" الذي يعبر عن هوّيته الجزائرية في كل سطر من سطور ديوانه هذا.

أراد مالك حداد ربط الشعر بالانتماء والهوّية والالتزام بقضايا وطنه لذلك نجده يستهل ديوانه برسالة أساها الانتماء الروحي للجزائر ويخاطب بها الشاعر الجزائري بدأها بقوله :"أنت لست جزائريا وكفى ولذلك وحتى تكفل التضامن مع الآخرين عليك ألا تضخم سوى لامبالاتك"[1]

إن شعور اللامبالاة التي تحدث عنها الشاعر لا يدخل ضمن المقاومة المسلحة والثورة ضد المستعمر بقدر ما هو نداء للتصدي للمستعمر فكريا (بالقلم)، فكتب للشاعر الثورة عمله الخالد الذي فتح

مجالا جديد للمقاومة و الدفاع عن الوطن ،فقد خاطب الشعراء الجزائريين جميعا دون استثناء لكنه

1 – مالك حداد، الشقاء في خطر ،ترجمةعبد السلام يخلف،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1 ،2005،ص5

استعمل صيغة المفرد و لم يعمم فلهم الحق في البحث عن السلام و الحرية و العيش الهنيء وسط الأهل و الأرض.

"لا شيء أجمل من السلام" [1]

فهو يريد العيش بعيدا عن صخب الحرب و الموتى و الجرحى لذلك يفضل النضال بالقلم بدلا من الاكتفاء بالمشاهدة.

"في التشريح الغريب للمفردات تلتحم كلمتا المهمة و الواجب، لي جملة من الواجبات على تأديتها وبعض المهام تنفيذها "[2] .

للشاعر مهمة عليه أن يؤديها وهي الدفاع عن وطنه وإثبات هوّيته ويواصل سرد الكثير من الحقائق المتصلة بحياة الشاعر الجزائري مستعينا في ذلك بأكبر قدر ممكن من الصور التعبيرية المليئة بالانفعالات و الشحنات العاطفية التي تدفعه إلى الحث على الكفاح و الجهاد بالقلم لتخليد كل ما كانت تحمله الذاكرة من صور الحياة قبل الاستعمار .

"إن كمال الإنسان يكمن في علم برتقالة في خريف دافئ دفء نهد امرأة تحبها في كل رجال العالم الذين سيصافحون بعضهم البعض إذا لم تبتر أياديهم، ستبلغ هذا الكمال بعد أن تقلب شقاءك

رأسا على عقب

تجول في الصحراء

1 –المصدر السابق. ص 7

2 –المصدر نفسه.ص 7.

تجول مع صحرائك واجعل منها حكمة مثل وردة الرمل

اجعل منها شيئا يكون في ذات الوقت حكمة ووردة"[1]

تبين لنا هذه الأسطر نظرة الكاتب للكتابة و الحياة و المستعمر ،فقد نسج لنا صورة جمالية هادئة آمنة بعيدة عن جو الحرب لذلك المكافح بالقلم و الكلمة فكلماته تصدر أغنية شجية تترامى في أعماق النفس فتبدل الحزن بالفرح و التشاؤم بالتفاؤل، ويدعو الشاعر أن تكون أعماله ملتزمة حاملة لهموم الأوطان والشعوب ، فيها تحفيز على النضال من أجل استرجاع الهوّية و الوطن فقد رأى أن " الاستعمار شوّه طبيعته وبأن وسيلة الهجوم الوحيدة التي قد تبعد صفة "المسخ" تلك هي عملية التعبير عن تلك المأساة بواسطة اللّغة أي التعبير بأداة تنتمي إلى أدوات المسخ نفسها (...) واختار الحب كمضمون لتلك الأداة (..) إنها ثورة القلم التي تمهل الثورة الغليظة وغير الشعرية الثورة المسلحة مدة من الزمن للقراءة لكي تراجع نفسها وتحترم طلب حب العدالة و الحرية " [2]

اللّغة هي سلاح يجب أن يحارب به الشاعر إذا لم تتح له الفرصة أن يكافح بالسلاح، لكنه يتحسر لعدم إتقانه العربية ،فلغة تعبيره مفروضة عليه وأصبحت جزءا من شخصيته، لكن إصراره على

تخطي هذه العقبة (الفرنسة) جعله يعبر بها عن قيمه وأفكاره وتقاليده التي أرادت فرنسا تشويهها وطمسها وحاول بلغة الآخر أن يثبت هوّيته، فلا سبيل للهرب من الواقع الذي أرغم الكثير من الأدباء على

1 –المصدر السابق. ص 11

2 – شرف الدين شكري، الحياة هي دائما موت أحد ما، مقاربة سوسيو أكيولوجية حول الأديب الجزائري مالك حداد ،دار أسامة ،الجزائر ،2009.،ص0 14،.141.

الكتابة بالفرنسية.

يرفض "مالك حداد اللغة التي يكتب بها و يصرح بأنه مرغم على الكتابة بالفرنسية التي اكتسبها عن المستعمر:

"إني أغني باللغة الفرنسية يا صديقي الشاعر،

إذا ما استهجنت لهجتي عليك أن تحاول فهمي

لقد أراد الاستعمار إن تكون لدي عاهة لغوية" (1)

تسببت هذه اللغة في شقاءه،فرغم عدم تنصله من هوّيته الجزائرية إلا أن كتاباته ذات المضامين العربية الجزائرية كانت تنسب بسبب اللغة إلى الفرنسية، فهو ينكر أن تكون هوّيته فرنسية لكن حبه للجزائر جعله يتحدى الصعاب و يتحدث عن هوّيته وانتماءه يقول:

"سوف تقول في فم مالك دوما كلمات باللغة الفرنسية هذا غير مهم ،لأنه يمكن لكلمة الجزائر أن تنطق حتى باللغة الصينية

1 – مالك حداد،الشقاء في خطر،مصدر سابق ،ص 16.

نعم يا أراغون هذه هي دراما اللغة

لو كنت أتقن الغناء لغنيت باللغة العربية" [1]

يصرح مالك حداد بأن اللغة الأجنبية ليست عائقا يحول دون التعبير عن الهوية التي هي كيانه و أمله في الحياة فحبه وشغفه بوطنه فاق الحدود وقد عبر عن عشقه لهويته وحقده على المستعمر الذي حرمه انتمائه ولغته وكل شيء يعتز به ،يقول :

"قبل كل شيء أنا عاشق

رائحة الحقد تنبعث مني، أي نعم، حقدي متشبع بالحكمة"[2]

فحقده على المستعمر لا حدود له وهو حقد مبرر غذه الوحشية و اللانسانية ضد المجتمع الجزائري فهو سبب في تعاسته و بعده عن وطنه ودافعه للمقاومة وتجريم فرنسا بقلمه الذي كرسه للتعبير عن هوّيته وإلغاء الكيان الفرنسي الذي يعيش فيه و الذي يحاول استمالته ونسبه إليه:

"ليس في مقدوري أي أغنية مقاومة للسهول

التي ترضى سوى أن تكون ميدانا للقتال

و الجسور التي تدمر الآن يا صديقي

---

1 –مالك حداد. الشقاء في خطر. مصدر سابق. ص 17.

2 –المصدر نفسه. ص 18.

لدليل على انه من الواجب أحيانا رد اليد التي تود مصافحتنا" [1]

اتّخذ "مالك حداد" من الكتابة ميدانا للقتال، فكل ما يختلج في نفسه يعبر عن رغبته في المقاومة والكفاح لإثبات هوّيته وانتمائه فقد عبر لنا عن جمال وطنه وسموه الذي بات يبحث عنه وهذا جاء في قوله :

"باحث عن السمو كنت

فلا تنصت إذن

ها أنا أندد بالزهرة المنتهية فوق الصخور

كم يسعد الشاعر الصامت

لكن وجب الكلام الآن

لي من الذكريات عشرة ملايين

أو ربما أكثر" [2]

يعبر الشاعر عن قوة الكتابة التي تحمل لمحات حبه لهوّيته وانتمائه للوطن ،حيث مزج بين

مفردات ذاته (أنا أندد) ومفردات الطبيعة (الزهرة الصخور) وهي تحمل لنا نفسية هادئة مبدئيا بعيدة عن التوتر .

يتخبط مالك حداد بين ثقافتين ثقافة يتوق إليها وثقافة يتنصل منها، فهو لا يحب الكتابة بلغة

1 - المصدر السابق.ص 19.

2- المصدر نفسه ،ص 25.

غير لغته لكن لا سبيل لذلك ،فرغم أنه يكتب بلغة فرنسية إلا أن اللّغة العربية كانت هاجسه "فاللّغة ليست أداة تقنية للتخاطب فقط ، وإنما هي بالأساس الوعاء الحضاري للأمم تحمل ا لعادات والتقاليد والمعارف و أنماط الحياة و التجارب التاريخية المعاشة[1] ، إن كل خصوصيات الأمم وطريقة عيشها تعبر عنها لغتها.

كان "مالك حداد" يحس أنه يكتب بكلمات مسروقة و يعبر عنها نفسه يتحدث بأفواه الآخرين البعيدين كل البعد عن ثقافته الجزائرية يقول:

"أستمع لأغنية ما كتبتها

لقد سرقت الأغنية

أتحدث بكلمات تخرج من أفواه الآخرين" [2]

هو لا يريد أن ينفصل عن هوّيته الجزائرية وقد اعتبرها جزءا لا يتجزأ منه، فحياته مرتبطة بأصله الذي لن يفرط فيه مهما كانت الظروف، وهو دافعه للكتابة ونظم الأشعار ضد الاستعمار، ومع ذلك فعجزه عن التحدث بالعربية لم يمنعه من التعبير عما يختلج في نفسه من ألم

وحسرة واعتبر الفرنسية منفاه وقد وجدناه في ديوانه هذا يلوم ويعتب على أبيه الذي حرمه من لغته التي كان يرتضيها

1- علي حميدان. إشكالية الهوية و الانتماء. المركز الاسترالي العربي للدراسات السياسية ج1.ط1،2005 ،ص33 .

2- مالك حداد،الشقاء في خطر،مصدر سابق ،ص 30.

ويتوق للحديث بها، إنه ينطق بلغة الآخر و يكتب بمفردات غريبة عنه غير أن ذاكرته مازالت محتفظة بنفحة

الأصالة العربية الخاصة أيام طفولته، يقول:

أبتاه حرمتني الموسيقى المشتهاة

"انظر الآن

هذا أنا

ابنك أتعلم النطق بلغة أخرى

بكلمات حفظتها يوم كنت راعيا" [1]

جعله إخلاصه لوطنه و أرضه وهوّيته يلوم أباه الذي حرمه من لغته الأم التي يتوق للحديث بها، ويرى أنه قبل أن يتعلم ويحصل على الشهادات العليا – يوم كان يرعى الأغنام- كان أسعد

لأنه محافظ على هوّيته، ويتحسر على تلك الأيام التي حرم منها بمجرد تثقفه بثقافة الآخر ،والتي جعلته يفقد هويته وانتماءه ، إذا فالسعادة ليست في المناصب والشهادات العليا بل في أن يكون الإنسان ذاته .

يحس مالك حداد بالهوة الكبيرة بين اللفظ العربي و اللفظ الفرنسي، فالعربية أعمق وأدل في نظره من

---

1 - المصدر ،السابق.ص35.

حيث دلالات الكلمات من الفرنسية التي رأى أنها أضاعت هوّيته و شخصيته كما أضاعت فرصته

في مساندة إخوانه الجزائريين في ثورتهم و من هنا تنطلق مناجاة الشاعر على طريقة عتابه لوالده الذي هو سبب في الوضع الذي يعيشه، و الذي جعله يتقن اللّغة الفرنسية ولا يتقن العربية التي تمثل هوّيته و انتماءه ،وهذا ما جعله يصرح بضياع هوّيته ، يقول:

"للأم ينادون ياما وأنادي ma mere

أضعت برنسي

قلمي

اسمي أغرب من سلوكاتي" [1]

تعتبر الأم عنده رمزا للعطاء و العطف و الحنان، وهي تتداخل ودلالات الوطن و الهوّية في بعض

قصائد الديوان وقد وظفها رمزا للأرض و الوطن الذي ينسب إليه لأن وطنه هو أمه وكيانه الذي يسعى من أجل أن يسترجع سيادته وحريته، لم ينس "مالك حداد" يوما وطنه وهوّيته بل كان وطنيا حد النخاع يدافع عن وطنه وهوّيته العربية وكان دائما يتطلع لعودة السلام يقول :

"أمي أبدا جميلة

دائما كنت أرافقها

1 –مالك حداد. الشقاء في خطر. مصدر سابق ص،36.

ينادونها حمامة

و بالعربية ذلك اسمها" [1]

يعبر الشاعر عن جمال وطنه ولغته فهو لا يغيب عن باله ولا لحقه ويذكره في كل زمان ومكان، لينتقل بعد موجة اللوم والعتاب إلى حالة الخوف الذي هو تعبير عن حاله، تتواصل لنا مظاهر الهوّية عند الشاعر حتى آخر الديوان لأن ديوانه هو بمثابة الحرب التي شنها ضد المستعمر ليثبت هوّيته التي هي السبب الوحيد لتعاسته .

يستنطق الخوف و يمنحه دلالات جديدة يقول:

"خائف أنت

خائف أنت خائف

وهذا الرجل يلاحق خطواتك

(....)

لكن

مادمت قلت لكم بأنني فرنسي

انظروا إلى ثيابي

ولغتي

1 –مالك حداد، الشقاء في خطر، مصدر سابق ،ص 55.

وبيتي، أنا الذي من النسب أقيم مهنة" [1]

فخوفه هو أن تتعود ذاته وتتعلم شيئا دخيلا عليها (اللغة الفرنسية) ،فتتعود العيش في وسط آخر غير الوسط الذي ينادي به روحه وكيانه (الجزائر) ، وإحساسه العميق بهوّيته جعله يحس هذا الإحساس ويعمل للتصدي لمخاوفه وتغيير الوضع القائم لذا نجده يقاوم الخوف بالخوف يقول:

"كان يا ما كان

هناك في وطني

صديق الطفولة

طفل

يرجو بالونا

كانت عيناه كالأرض المدورة

قتلوه في سجنه

دون بالونه

لا أصدق أبدا أن الأرض مدورة" [2]

1 – المصدر السابق . ص 37.

2-المصدر نفسه ،ص 48.

يجعل الشاعر من قوة الألم والحسرة دافعا وحافزا لتحقيق هدفه المنشود (هويته وطنه) وهو يجعل من

الضعف والشيء المفروض مهنته فكانت مهمته هي الإصرار على تجاوز الألم.

إن الهوية هي دافع الشاعر ومحركه لتخطي الصعوبات والآلام والمضي نحو إثباتها وإحساسه بفقدانها جعله يتألم ويرفض العيش في ذلك الوضع بعيدا عن أهله وأحبته يقول :

"إني أتألم

أعيدوا إلي المروج.

قالت الزهرة

زهرة الحرية" [1]

تبدأ ذاته بالتململ كالسمكة التي أخرجت من البحر، الإنسان بلا هوية كالزهرة المجتثة من المرج الذي نبتت فيه، يطالب الشاعر بحقه الإنساني في الحياة، في استرجاع هوّيته ووطنه المسلوب الحرية و هنا نجده يأمر المستعمر الآخر بان يعيد هوّيته ووطنه الذي سرقه منه وأبعده عنه يقول:

"يصيبني الضجر داخل البيانو

أعيدوا إلي الغابة التي اسمها الموسيقى" [2]

يطالب مالك حداد بحق الأرض و يترجم لنا أهم مطلب لديه عودة الأرض و الهوّية، هذه الأرض

1 –المصدر السابق، ص 58

2 –المصدر نفسه ،ص.ن.

التي أفنى عمره وهو يبكيهم ويحن إليها، فهي أمه التي أرضعته طعم الحرية و الوفاء يقول :

"يا أمي

الآن وجب البكاء

وجب أن تبكي هذا الطفل

الذي صار ابنك

منذ اختار أن يناديك أمي" [1]

ينعي "الشاعر" نفسه في هذا المقطع ،يعتبر نفسه ميتا بفقده لهوّيته ، وهو حال الجزائريين جميعا ، إنه يدرك حجم الشقاء الجزائر ومعاناتها المستمرة و التي لن تزول إلا بالتحرك و العمل على

استرجاع الحرية التي لا تسترد إلا بالقوة كما أخذت بالقوة، يقول :

اسمي جثة

كنت البارحة حيا

كانت لي بنات

شربت الحليب و الماء

والأكاذيب

---

1 –المصدر السابق، ص 62.

انتصبوا عاليا يا رفاقي

فالجبال على حق"[1]

اتخذ الشاعر من تجربته المريرة هذا الموقف لكونه من ضحايا الموت بلا هدف و لم يعد يملك اسما غير كونه جثة أما قبل ذلك فكان على قيد الحياة يتمتع بالسلام محافظا على هوّيته ويشرب من ماء وحليب وطنه لكنه بعد فقدان هوّيته شرب الأكاذيب وماكان له إلاّ أن يحث رفاقه الجزائريين على الالتحاق بالثورة ليحققوا ما عجز عن تحقيقه.

لن تزول معاناة الجزائر إلا بالانتصار و استرجاع الهوية و السيادة الوطنية و إبعاد المستعمر عن أرضها ، وقد بكى الشاعر شقاء الجزائري بقوله :

"الشقاء الجزائري

ما أكبر هذا الشقاء

يغني أغنية الغد المنشد

تقاعس الإنسان

ثم بكى في خضم الفرح" [2]

1 –المصدر السابق. ص 65.

2 –المصدر السابق. ص 68.

بكى "مالك حداد" الجزائر بمرارة وفي الوقت نفسه بعاطفة قوية متفائلة متطلعة إلى زوال البؤس والشقاء وتحقيق هدفه المنشود ألا وهو السلام ،حيث نجده يحث الجزائريين على العمل على استرجاع الهوّية عن طريق السلاح يقول:

"يقيني كبير في الفرح

الفرح الذي سيكون جزائريا

فرح تلك القرية

أين سيولد أطفال

يتوجهون إلى المدرسة" [1]

الانتصار على المستعمر واسترجاع الأرض والهوّية سيجعل الجزائر تعيش في فرح وتعود إلى الأيام الخوالي ،أيام الحرية ،والهوّية الجزائرية الخالصة ،إن أمله كبير في استرجاع حرية الجزائر وهوّيتها ، ويعبر عن حنينه المتزايد للجزائر وأرضها :

"خبروني

عن القبلة التي ما أخذت

خبروني

---

1 –المصدر السابق. ص 79.

عن الصحراء التي لها الأغاني نسجت

عن الصحراء التي لها الأغاني نسجت

خبروني

عن الغزالة التي اغتالها الإنسان

خبروني

عن الزهرة التي من دون بستان" [1]

يكثر مالك حداد من طرح الأسئلة وهو يريد أن يخبرنا عما فعل الشقاء (المستعمر) بأمه (الوطن و الهوّية) من قتل وتنكيل و اغتصاب و اعتداء وهذا يبين لنا ذروة عاطفة الحزن و الحيرة و الحنين إلى الهوّية و رموز الأمة الجزائرية ،ليتحرر الشاعر بعدها من قيود المستعمر بعودة الحرية و السيادة و الهوّية وطرد الاستعمار ، تتوق ذات الشاعر إلى التحرر والانعتاق في سماء رحبة اسمها الجزائر الوطن الهوّية فلم يجد كلمة مناسبة للتعبير عن هذا الطوق غير أتركوني وشأني فزمنكم ولى وانتهى وجاء زمن السلام و الحرية يقول:

"تقول الحمامة

أتركوني وشأني

1– المصدر السابق، ص 80.

أستحيل إلى طير من جديد" [1]

4–الأنثروبولوجيا الجزائرية في ديوان "الشقاء في خطر" :

رأينا في المبحث السابق أن الهوّية كانت ذلك الكابوس الذي يؤرق "مالك حداد" ويقض مضجعه ، وكان للهوّية الجزائرية تجليات كثيرة أهمها توظيف الشاعر لرموز الثقافة والأنثروبولوجيا الجزائرية . لا ينكر أحد اختلاف الخصائص الثقافية من بلد لآخر ومن مكان إلى آخر حتى داخل البلد الواحد وما كان لخصوصيات الشعوب أن تعرف وتتميز عن غيرها لولا ظهور علم

يدرس حياتها ويقوم برصد ثقافتها من مأكل ومشرب وملبس وعادات وتقاليد بوصفه وصفا كليا يمكننا من إدراك وفهم أبعادها فهما و هو علم الانثربولوجيا.

وقد تجلت لنا بعض العناصر الأنتروبولوجية في بعض من مواضيع ديوان "مالك حداد" "الشقاء في خطر" الذي اختار أن يعبر فيه عن ثقافته خاصة تلك البساطة التي تتجلى في الحياة اليومية للمجتمع الجزائري و التي تمثل هويته و انتماءه ،ويظهر ذلك جليا في الأمثلة التي سنوردها في هذا المبحث وقمنا بتصنيفها كالتالي:

---

1 –المصدر السابق ،ص 89

أ–الحياة الاجتماعية :

يقول مالك حداد في إحدى قصائد الديوان :

"يقيني كبير في الفرح الذي سيكون جزائريا

تفرح تلك القرية" [1]

نلاحظ أنه قصد استخدام كلمة "قرية" التي تعني المكان أو التجمع السكاني الريفي الذين يستقر فيه الناس ويكونون مجتمعا خاصا بهم أساسه الترابط الاجتماعي الكبير الذي يسود داخل القرية

الواحدة وهذا هو المجتمع الذي ينتمي إليه الشاعر و يريد إثبات هوّيته وانتمائه من خلال توظيفه لكلمات تحمل دلالة وشحنة ثقافية جزائرية.

كما نجده أيضا يوظف ما يعبر عن بداوته و بدواة الشعب الذي ينتمي إليه ويفتخر بهذه البداوة فالشعب الجزائري شعب بسيط يعيش حياة تقليدية بسيطة و يستعمل وسائل بدائية في طريقة العيش:

"أنا متقين من أن قطعة الخشب التي تشكي حين تشغل مراقدنا تروي غضب وحنين الأشجار" [2]

---

1 – المصدر السابق، ص 68.

2-المصدرنفسه ،ص 20.

كما يفتخر بمهنة الرعي التي كان يمارسها:

"راعيا كنت

وبعيني يمتد صبر طويل

لفلاح يتأمل في يدين ترفضان الانكسار"[1]

يصف الشاعر هنا أسلوب الحياة الجزائرية: (الرعي، الفلاحة) الذي يعتمد على التحدي

والعزيمة والإصرار من أجل الحفاظ على البقاء وتجاوز كل الصعوبات في سبيل غد أفضل .

كما يصف كذلك في ثنايا ديوانه كرم الشعب الجزائري و تضامنه في السراء و الضراء ،فالجزائري يحس بألم أخيه ويواسيه في مصائبه و يتقاسم معه كل ما يملك وهذا كان حاله أثناء ثورة التحرير، يتقاسم الجزائريون حتى فتات الرغيف وهذا يدل على تضامنهم حتى في أبسط التفاصيل:

"قطعت الكسرة

تقاسمت حبات التين" [2]

كان الجزائريين يتقاسمون الكسرة و حبات التين مع المجاهدين الذين كانوا يدافعون عن الوطن ويحاولون استرجاع الهوية الجزائرية.

1- المصدر السابق،ص 34.

2-المصدر نفسه،ص 34.

ب-العادات و التقاليد :

لكل مجتمع عادات وتقاليد تميزه عن غيره من الشعوب ،و للمجتمع الجزائري توارثتها الأجيال المتعاقبة وتمسكت بها أيما تمسك كما اعتبرتها جزءا لا يتجزأ من حياتها اليومية، وقد ذكر لنا مالك

حداد بعض تقاليد وعادات الشعب الجزائري كالزواج :

"زوجت بناتي" [1]

الزواج طقس له قيمة ثقافية واجتماعية وذلك لارتباطه بالعادات و التقاليد الموروثة لدى المجتمع الجزائري وهو ما عمل الشاعر على تبيانه،ويظهر في هذا البيت نظرة "مالك حداد" التقليدية المحافظة لهذا الموضوع،فالبنت الجزائرية تظل تحت كفالة أبيها حتى يزوجها وهذا هو رأي الجزائريين عامة وهي فكرة لصيقة بالهوّية الجزائرية.

ج–الملبس:

يعتبر موضوع الملابس من المكونات التراثية الهامة لكل الحضارات، فضلا عن أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بعادات وتقاليد المجتمعات .

تعرف الجزائر بتراث غني يميزها عن غيرها من الشعوب، ويعد " البرنس" من أهم رموزها التراثية

---

1 – المصدر نفسه ، ص34

التي لم تطلها رياح الثقافة الأجنبية ،لذا وظفه مالك حداد بتوظيفه البرنس في ديوانه كرمز من رموز الهوية الجزائرية:

"هذا برنسي امتداد لبيتي" [1]

يعبر الشاعر عن محافظته على أصالته و تمسكه بهويته وقد أضفى هذا الرمز لمحة محلية تدل على هوّيته الجزائرية التي لم ولن يتنصل منها رغم كل الظروف الصعبة.

بعد تحليلنا لهذه المعطيات الخاصة بالثقافة الأنثروبولوجيا الجزائرية لديوان "مالك حداد لاحظنا أنه عمد إلى توظيف عناصر الأنثروبولوجيا الجزائرية وجاءت حاملة شحنة ثقافية دلالية تعبر عن هويته وانتمائه لتلك الثقافة التي لا ع قلبه بها.

الهوية الإسلامية :

يعد الانتماء الإسلامي مكونا رئيسيا من مكونات الهوّية الجزائرية ،و لم يفت "مالك حداد" أن يذكر هذا الانتماء في ديوانه بتوظيف أحد رموزه وهو اللباس الإسلامي :الحجاب تحديدا،يقول:

"كفانا

أختي لا تضع خمارا"[2]

1-المصدر السابق .ص 33.

2 – المصدر نفسه ،ص 37.

الخمار من الرموز الدينية التي تفصل بين المسلمين و غيرهم فهو في الثقافة الإسلامية لباس وسترة للمرأة ،به تكون عفيفة ،وما وذكر "مالك حداد" للخمار إلا دلالة على تشبثه بالثقافة الإسلامية العربية التي تكون هويته وانتمائه.

كما نجد إلى جانب الخمار السبحة و هي أداة تعين العابد على ذكر الله و الخشوع كما أنها من علامات التقوى و التدين لحاملها ، يقول:

"رأيت جدي المقراني

يضع سبحته جانبا

ليرى النسور المحلقة في السماء

للوطن في أرضنا طعم الأسطورة" [1]

ويوظف الشاعر هنا السبحة في سياق ؛ صور أبناء الوطن وقد تركوا السبحة وانطلقوا للجهاد من أجل استرجاع الوطن.

---

1 – المرجع السابق، ص 36

نستشف من خلال دراستنا لديوان "مالك حداد" "الشقاء في خطر"، أنه رغم محاولات الاستعمار المستمرة تجريد أبناء الجزائر من أرضهم وتراثهم الثقافي وهوّيتهم إلا أنهم تصدوا بكل قوتهم لتلك المحاولات، وقد التزم "مالك حداد" بما التزم به أبناء الجزائر تجاه ثورتهم المقدسة ولجأ

إلى استعارة اللغة الأجنبية للتعبير عن واقعه وهويته وثقافته التي قاوم من أجلها بكل الوسائل ، حيث اتّخذ من الخطاب الشعري أداة لمقاومة الآخر (الاستعمار) ومحاربته التي اتّخذها وسيلة لإفراغ حمولاته العاطفية تجاه وطنه وهوّيته التي يرى نفسه فقدها بفقدانه للّغة الأم لذل اعتبر اللغة الفرنسية منفاه.

ومقاومة مالك حداد مقاومة نابعة عن وعي ومعرفة بجوهر النضال وضرورة العمل وفق المنطق الإنساني ،فهو متيقن أن جل القيم الأخلاقية التي حركتها في نفسه هويته عبارة عن مبادئ إنسانية في النضال والمقاومة بالسلاح أو القلم ، والوعي هو الحل الوحيد لتحقيق القيم الإنسانية وديوانه هذا هو بمثابة الحرب التي شنها ضد الآخر الذي سلب حقه في الحياة ليكشف لنا جرائمه وممارساته اللإنسانية ضد مجتمعه ووطنه وهوّيته ويكشف من خلاله عن تشبثه بهوّيته رغم النقص الذي يعاني منه وهو عدم تمكنه من اللّغة العربية ، لكن هذا لم يمنعه من التعبير بكل وضوح عن انتمائه الجزائري العربي الإسلامي.

خاتمـــــــــــــة

يشكل البحث في الهوية وعلاقتها بالأدب ميدانا واسعا تتداخل فيه كثير من العلوم التي تساعد الباحث على معرفة جوهر الشعر وما يزهر فيها من ملامح تعبر عن شخصية صاحبه ،وقد كانت انطلاقتنا الهوية في الشعر العربي ونقطة وصولنا وغايته الهوية الجزائرية في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في ديوان "الشقاء في خطر" تحديدا وكانت النتائج المستخلصة من بحثنا كالآتي :

1- الهوية هي جملة من المعايير والخصائص التي تميز فردا أو جماعة ما عن غيرها .

2- عبر الشعراء الجاهليون عن هويتهم وانتمائهم المفقود شعرا ،فابتعادهم عن قبائلهم وحنينهم إليها زاد من شعورهم بالقلق على هويتهم مما جعل شعرهم يعبر عما يختلج في أنفسهم وما واجهوه في حياتهم واتخذ بعضهم الطبيعة ملاذا وأنيسا مثل الصعاليك.

3- تناول شعراء العصر الحديث موضوع الهوية بإسهاب ،حيث صورت أشعارهم الوطن وما عانوه فيه من حرب وظلم واستبداد ،كما عبروا عن رغبتهم الجامحة في استرجاع هويتهم العربية التي حاول الاستعمار طمسها .

4- يعد الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ظاهرة أدبية لها خصوصيتها الفنية والفكرية ،وقد عكست بالدرجة الأولى تلك التجربة الثقافية الخطيرة التي عاشتها الجزائر ، لكن انتمائه كان محل جدل :هل هو جزائري بالنظر إلى المضامين أم فرنسي بالنظر إلى اللغة التي كتب بها .

5- أكد "مالك حداد" من خلال ديوانه "الشقاء في خطر" وعيه الكبير بالهوية الجزائرية التي حاول الحفاظ عليها رغم الصعاب التي واجهها ورغم بعده عن وطنه .

6- برز موضوع الهوية بقوة في الديوان ،وظلت هذه الهوية صامدة متمسكة بأصالتها وعروبتها رغم محاولات طمسها .

7- عبر "مالك حداد" عن معاناته جراء اضطراره للتكلم بلغة غير لغته والعيش في وسط غريب عنه. 8- يظهر موضوع الهوية في الديوان من خلال تقديم الشاعر نظرة شاملة لعادات وتقاليد وطنه الجزائر ،كما عبر تعبيرا صريحا عن هويته العربية الإسلامية.

9- رفض "مالك حداد" اللغة الفرنسية التي اضطر اضطرارا للحديث والكتابة بها واعتبرها منفى له ،وعبر عن حنين إلى اللغة العربية باعتبارها اللغة الأساس الأول للانتماء.

10- استخدم الأدباء الجزائريون الفرنكوفونيون اللغة الفرنسية للتعبير عن واقعهم ،مجتمعهم ،أصالتهم ،هويتهم ،وهذا ما تجلى لنا عند مالك حداد الذي اتخذ من اللغة الفرنسية سلاحا ووسيلة للنضال ضد المستعمر والتعريف بالقضية الجزائرية.

قائمة المصادر و لمراجع

1-المصادر:

مالك حداد ،الشقاء في خطر ،ترجمة عبد السلام يخلف ،منشورات الاختلاف ،الجزائر ، الطبعة الأولى ،2005.

2- المراجع :

1-أحمد منور ،الأدب الجزائري باللسان الفرنسي :نشأته وتطوره وقضاياه ، دار التنوير ،الجزائر ،ط1، 2005.

2-امرؤ القيس ،ديوانه ، تحقيق مصطفى عبد الشافي ،دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، ط5 ،2004. 3-

زهرة ديك ،من روائع الأدب الجزائري ،مقتطفات من نصوص أبرز الأدباء الجزائريين ،دار الهدى ،عين مليلة –الجزائر ،ط1، 2010. 4-حسن

فتح الباب ،مفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية ،دار الرائد للكتاب ،الجزائر ،ط1 ، 2010.

5- لبيد بن ربيعة ،ديوانه ، دار المعرفة ،بيروت – لبنان ، ط1 ، 2004.

6- محمد أحمد أسعد ،موسوعة روائع الشعر العربي دار صفاء ،عمان- الأردن ، ط1 ،2003.

7- محمد فكري الجزار ، الخطاب الشعري عند محمود درويش ، إيتراك للطباعة والنشر ،القاهرة – مصر ، ط2، 2001.

8- محمد طمار ،تاريخ الأدب الجزائري ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،دط ،2006.

9- محمود درويش ،ديوانه ،دار العودة ،بيروت –لبنان ،ط1، 2010.

10- محمود درويش ،الأعمال الأولى ، رياض الريس للكتب والنشر ،بيروت – لبنان ، ط1 ، 2005.

11- محمود قاسم ،الأدب العربي المكتوب بالفرنسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، دط ، 1996.

12- مفدي زكرياء ،اللهب المقدس ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ،دط ،1983.

13- نادر كاظم ،تمثيلات الآخر ،صورة السود في المتخيل العربي الوسيط ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ط11، 2004.

14- نور سلمان ،الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير ،دار العلم للملايين ،بيروت- لبنان ، ط1 ، 1996.

15- عبد الحفيظ بور يدم ،النص الشعري المعاصر :من حضور الوهم وبلاغة الشهود ، دار البشائر، الجزائر ،ط1 ، 2002

16- عبد القادر عبد الحميد زيدان ،التمرد والغربة في الشعر العربي ،دار قباء ،القاهرة- مصر ،دط ،دت.

17- عبده بدوي ،الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ،دار قباء للنشر والتوزيع ، القاهرة- مصر ،دط ،دت.

18- علي حميدان ،إشكالية الهوية والانتماء ،المركز الاسترالي العربي للدراسات السياسية ، ط1 ،2005.

19- عمرو بن كلثوم ،معلقته ،دار الكتب الوطنية ،أبو ظبي ،الإمارات العربية المتحدة ،ط1 ، 2012.

20- عنترة بن شداد ،ديوانه ، دار المعرفة ،بيروت – لبنان ،ط2 ،2004.

21- عنترة بن شداد ،ديوانه ،دار صادر ،بيروت – لبنان ، ط1 ، 2005.

22- الصحراوي الفقيهي ،رهان التجديد في الرواية المغاربية المكتوبة بالفرنسية ،مطبعة النجاح الجديدة ،الدر البيضاء – المغرب ،ط1 ، 2001.

23- شرف الدين شكري ،الحياة هي دائما موت أحد ما :مقاربة سوسيو أركيولوجية حول الأديب الجزائري مالك حداد ، دار أسامة ،الجزائر، ط1 ،2009.

24- الشنفرى ، الديوان ،تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي ،بيروت- لبنان، ط2 ، 1996 .

25- شوقي ضيف ،تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط1، دت.

26- شوقي ضيف ،تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط6، دت .

27- تأبط شرا ،ديوانه ، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط1، 2003.

الرسائل الجامعية :

1- شاهيناز بسمة زرقة، المكان في القصيدة الجاهلية، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2000-2001.

2-علجية مرحوم،القضية الجزائريةفي الرواية الناطقة باللغة الفرنسية،دراسة مقارنة1935،1962، رسالة ماجستير،دمشق،نقلا عن،رسالة ماجستير ،التاثيرات الأجنبية في أدب مالك حداد،جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف2011،2012

أعمال الملتقيات:

مازية حاج علي، الهوية والاستعمار، ندوة الهوية في الأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، مارس 2004.

المواقع الإلكترونية :

موقع إلكتروني أعلام جزائرية مالك حداد منتديات فيض القلم.

www.9alam.com/community/threads/malak-xhdad.23116/

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة.....أ-ب

الفصل الأول:الهوية في الشعر العربي.....3

1-قديما.....5

أ-المقدمة الطللية.....5

ب-الصعلكة.....7

ج-التعصب للقبيلة.....10

د-السود وصورتهم في المجتمع والشعر.....11

2-في العصر العباسي.....18

3-حديثا.....19

4-إشكالية انتماء الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.....26

الفصل الثاني:تجليات الهوية في ديوان "الشقاء في خطر"لمالك حداد.....30

1-لمحة عن حياة الشاعر.....31

2-لمحة عن الديوان.....36

3-ملامح الهوية في الديوان.....40

4-الأنتروبولوجيا الجزائرية في ديوان الشقاء في خطر.....56

أ-الحياة الإجتماعية.....57

ب-العادات والتقاليد.....59

ج-الملبس.....59

5-الهوية الإسلامية.....60

خاتمة.....64

قائمة المصادر والمراجع.....67

فهرس الموضوعات.....71